



دموع كيوبيد

د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

دموع كيوبيد

مهلا إله الحب ، رفقاً بالبكاء
لا تريق الدمع فى مهد السماء
سل دموعك كيف تنزف كالدماء
سل جناحيك المحبة والرجاء
خض بقوسك بحر حزن الأوفياء
ألق سهمك فى قلوب الأشقياء
واعف عن قلبى الذى بالجرح ناء
واصطلى نار الوجيعة والبلاء
كف نفسى عن دروب الأشقياء
امح اسمى من سجل الأبرياء
صرت روحاً لا تبالى بالبقاء
صرت عمراً يبتغى نبض الفناء

(نيل)

١ ـ اعتراف ..

أتسألنى لماذا جئت إليك يا سيادة وكيل النيابة ؟ ..
أتسألنى سرّ إصرارى الشديد على مقابلتك منذ الصباح ؟ ..

إننى أقرأ هذه التساؤلات فى عينيك يا سيدى ، وأقرأ معها عشرات التساؤلات الأخرى ، التى لم يفصح عنها لسانك ..

إن نظراتك تنطق بكل ما لم تتفوه به شفتاك ..

ولكننى أستحلفك ألاّ تتطلّع إلىّ بتلك النظرة المتشككة ، وألاّ تلتفت إلى شعرى غير المصفف ، ولا إلى لحيتى ، التى بدأت تنمو فى مشقة ، كنبت وليد يشق أرضاً جافة فى عسر وشدة ..

إن هذا ليس مظهرى الذى ألِفه الآخرون ..

لقد كنت ياسيادة وكيل النيابة منذ يومين اثنين إنساناً آخر ..

كنت شابًا وسيماً ، شديد التأنق والعناية بنفسه ،

لا يرتدى إلا أفخر الثياب، ولا يتعطر إلا بأرق وأغلى العطور ، حتى حدث ما حدث ..

لا تتعجل يا سيادة وكيل النيابة ، فتتصور أننى ضحية ..

ضحية خداع أو سرقة أو عملية نصب ..

بالعكس .. إننى أنا الجانى ..

لقد جئت إليك لأعترف بجريمتى ..

جريمة قتل ..

لماذا أخذتك الدهشة هكذا يا سيادة وكيل النيابة ؟.

لماذا تراجعت وأنت تحدّق فى وجهى على هذا النحو العجيب ؟..

كفّ بالله عليك عن تلك النظرة التى تحدجنى بها، والتى توحى بالجنون ..

فأنا لست مجنوناً ..

أنا قاتل ..

ألم يحدث طوال عملك كله ، أن جاء إليك قاتل بمحض إرادته ، ليعترف بجريمته ؟ ..

أمن الضرورى أن يسلم القاتل نفسه إلى الشرطة أولا ، ثم يأتى إلى مكتبك مكبّلا بالأغلال ، تحت حراسة الشرطة ؟ ..

لا يا سيدى ..

إننى ، ومنذ حداثتى أكره التعقيدات، والروتين ، والإجراءات الطويلة المُمِلّة ..

وهأنذا بين يديك ، أختصر كل ذلك ، وأوفر وقت العدالة ، وأعترف بجريمتى على مسامعك مباشرة ..

لماذا تتنهد هكذا يا سيادة وكيل النيابة ؟ ..

هل أصابك الملل من حديثى ؟ ..

حسناً يا سيدى .. حسناً .. لن أضيع المزيد من وقتك .. سأعترف ، وكل ما عليك هو أن تستمع إلى قصتى فى صبر وأناة ..

ولكن لا تجعل مظهرى ، أو قدومى إليك بمحض إرادتى يخدعانك ، فتتصورنى قاتلاً بائساً ، ارتكب جريمته فى ثورة غضب ، أو فى واحدة من تلك اللحظات ، التى يفقد فيها الإنسان سيطرته على عقله

ومشاعره ، ويتحوّل فى لحظـــة واحدة من آدمى إلى وحش مفترس، يروق له تمزيق ضحيته ، ولعق دمائها فى شراهة ..

لقد ارتكبت جريمتى بعد تفكير طويل ، وتخطيط أطول ..

إنها جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد ..

هل تفهم ما يعنيه ذلك يا سيادة وكيل النيابة ؟..

أنت تفهم بالطبع ، فهو عملك ، ومن المؤسف أنه أساس دراستى أيضاً ..

فأنا مثلك ، خريج كلية الحقوق ، ومحام معروف وإن لم يسعدنا الحظ بأن نلتقى ، قبل أن تجبرنا الظروف، على أن يقف كل منا هذا الموقف من الآخر ..

ونحن نعلم — أنت وأنا — أن عقوبة القتل العمد ، مع سبق الإصرار والترصد هى الإعدام شنقاً ، ولا سيما حينما تقترن الجريمة باعتراف الجانى بمحض إرادته ..

وصدقنى .. أنا أستحق هذه العقوبة ..

قلت لك إنها جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد،

ولكنك لن تتصور أبداً كم بلغ هذا الإصرار ، وكم طال ذاك الترصد ..

لقد خططت لجريمتى ، وعقدتُ العزم على تنفيذها منذ عشرين عاماً ..

هأنتذا تعود لرفع حاجبيك بهذه الدهشة العجيبة ..

أيدهشك أن يستغرق الإنســان عشرين عاماً فى التخطيط لجريمة قتل ؟

أم يدهشك قولى هذا ، وأنا لم أتجاوز الثلاثين من عمرى بعد ؟ ..

لا تجعل هذا أو ذاك يدهشك يا سيدى ، فأنت لا تدرى كم من الممكن أن تسيطر شهوة الانتقام على المرء ، وتتملك مشاعره ، فلا يعود يرى ، أو يسمع أو يتناول ، أو حتى يستنشق سواها ..

إنها إذا ما بلغت فى أعماق إنسان ما هـذا القدر ، فإنها تستعبده ، وتصير هى السيد ، ويصبح هو عبداً خاضعاً لها ..

وهذا ليس بالعجيب أو النادر ، فلو أنك عملت

فى بداية حياتك فى الصعيد ، ما أدهشك ذلك ، فهناك قد تنتظر جريمة الثأر ضعف هذا الزمن ، ليتم تنفيذها فى اللحظة المناسبة ..

وقبل أن تذهب بك أفكارك بعيداً ، أحب أن أؤكد لك أننى لست من أبناء الصعيد، وليس فى أسرتى كلها من ينتمى إلى هذا النصف العريق من جمهورية مصر العربية ، وإنما أردت أن أضرب لك مثالا ، فجريمة الثأر لا تقتصر على منطقة واحدة ، ولا على أشخاص بعينهم ..

إنها جريمة تنبع من أعماق الإنسان ، حينما تحيط بعينيه غشاوة الانتقام السوداء ..

ولقد كانت جريمتى جريمة ثأر ..

جريمة ثأر ارتكبها شاب وسيم نحيل ، حليق أنيق ، له شعر أسود ناعم ، وعينان زرقاوان فى لون البحر لحظة الغروب ..

هذا الشاب هو أنا ..

معذرة يا سيادة وكيل النيابة ، لقد ألهتنى حماسة الاعتراف عن تقديم نفسى إليك فى البداية ..

أنا كما أخبرتك ، محام معروف ، واسمى هو (عادل) .. (عادل سالم) ..

أرى من ذلك الجزع الذى تبدَّى فى عينيك أنك قد عرفتنى ، ولا ريب أن شهرتى قد وصلت إليك ، دون أن نلتقى وجهاً لوجه ..

نعم يا سيدى .. أنا ذلك المحامى الشهير ، الذى أثار إعجاب الجميع لنبوغه ، وهو لم يتخطَّ بعدُ الثلاثين من عمره ..

ولكن اسمى لا ينطبق أبداً على فعلى ، أو على الجريمة التى ارتكبتها ..

فما فعلته لا يعد عدلا ، بل هو ظلم فادح ..

إننى أكثر أهل الأرض ظلماً وخسة ..

صدقنى يا سيادة وكيل النيابة ، إن هذه الحقيقة القاسية لم تتضح لى إلا بعد أن فات الأوان ، وارتكبت

جريمتى البشعة النكراء ، واستيقظ ضميرى على صرخة العذاب ، بعد أن غفا طويلا خلف شهوة الانتقام ..

أما ضحيتى البائسة المسكينة ، فهى أرق مخلوق فى العالم كله ، منذ بدء الخليقة ..

إنها فراشة رقيقة انتزعت أنا جناحيها فى نذالة منقطعة النظير ..

زهرة يانعة متألقة ، وَطِئتها بقدمىَّ فى خِسَّة ، ومزقتها فى بستان الطهارة والسعادة والحب ..

عصفور رقيق هائم فى سماء البراءة ، ذبحته أنا فى وحشية ..

اسمها (هالة) ، وهى هالة من نور الرحمن (عز وجل) ..

هالة من الوداعة والجمال والرقة والحنان ..

هاك صورتها يا سيادة وكيل النيابة ..

هل ترى كيف اتسعت عيناك فى ذهول ، أمام جمالها الملائكى ، ورقتها الخرافية ؟

هل ترى كيف أسرَتك عيناها الحالمتان ؟ وكيف

بعث بريقهما الذهبى فى أعماقك حناناً وعطفاً بالغين ؟..

هل تصدق أننى قتلت هذا الملاك وأنا بكامل وعيى ؟..

هل علمت الآن أى وحش زنديق أنا ؟..

أراهنك أنك الآن قد فقدت أى شعور بالرحمة أو الشفقة نحوى ..

أراهنك أنك تتمنى الآن لو كان بإمكانك إعدامى دون تحقيق أو محاكمة ..

وصدقنى .. أنا أيضاً أتمنى ذلك ..

ولكن جريمتى لم تكشف بعد ، وكان من الممكن ألا يكشفها أحد أبداً ..

وهذا ما دفعنى للقدوم إليك ..

إننى أستحق العقاب ..

أستحق عذاباً لا ينضب ولا ينتهى ..

هل أثرت فضولك يا سيادة وكيل النيابة ؟ ..

هل تتملكك الرغبة فى معرفة سرّ ارتكابى لهذه الجريمة البشعة ؟ ..

هل ينتابك الفضول لمعرفة كيف ارتكبت جريمتى ؟.

حسناً يا سيادة وكيل النيابة .. سأخبرك كل شىء ..

سأعود بك إلى البداية ..

إلى عشرين عاماً مضت ..

سأقص عليك قصة أبشع جريمة فى التاريخ ، بعد أن قتل (قابيل) شقيقه (هابيل) ..

سأقص عليك قصة جريمتى ، وسأروى لك اعترافى ..

استمع إلىّ ..

* * *



٢ - البداية ..

بدأت قصتى بحكم إعدام ..

إعدام أبى فى جريمة قتل ..

كنت فى العاشرة من عمرى ، حينما نطق القاضى بهذا الحكم فى هدوء ، وكأنه يؤدى عملا روتينيًّا عاديًّا ، ثم أخذ يجمع أوراقه ، دون يلتفت إلى أبى ، الذى امتقع وجهه ، وجحظت عيناه ، وتشبث بأصابع نحيلة معروقة فى قضبان ذلك القفص الحديدى القبيح ، الذى يقف داخله المتهمون ، فى ركن قاعة المحكمة ، وكأنهم وحوش فى حديقة الحيوانات ، ليتطلع إليهم رواد القاعة فى مزيج من الإشفاق والعطف ، والازدراء ، وبعض الشماتة ..

ودون أن يلتفت إلى أمى ، التى تفجرت بالبكاء ، ولطمت صدرها بكفها فى قوة ، قبل أن تفقد وعيها من شدة الحزن والصدمة ..

ولا إلىّ ، حينما انكمشت فى مقعدى ، مذهولا واجماً ،

أنقل بصرى فى لوعة وذعر بين أبى وأمى ، والقاضى .

ولكن نظراتى تركزت طويلا على وجه القاضى .. الوقور الرزين ، المشرب بحمرة خفيفة ، والذى اصطبغ فوداه بشيب أنيق ، جعله أشبه بقضاة السينما ..

وشعرت لحظتها بحقد هائل يملأ نفسى ، وببغض رهيب يسرى فى عروقى ..

وتبدلت الأدوار فى رأسى فى هذه اللحظة ،فصرت أرى والدى ضحية بريئة مسكينة ، والقاضى سفاحًا وحشاً لا يعرف الرحمة ..

ونسيت أمى التى فقدت الوعى .. ونسيت أبى الذى طفق يبكى فى حرارة ، وأخذت أتابع القاضى بعينين ملؤهما البغض والكراهية ، وهو يغادر القاعة فى وقار ، مرتدياً ذلك الروب الأسود ، الذى بدا لى – فى تلك اللحظة – خليقاً بالشياطين ..

ولم ينتزعنى من نظراتى هذه إلا صرخة ملتاعة ..

صرخة تحمل اسمى ، وتحمل صوت أبى ..

والتفت إلى أبى فى جزع ، ورأيت جنود الشرطة

يجذبونه خارج القاعة فى خشونة ، وهو يهتف باسمى ، ويلوّح بكفه إلىّ ، وكأنما يستغيث بى ، أو يدعونى لإلقاء جسدى النحيل بين ذراعيه ..

وعبرت القاعة كلها كالصاروخ ، وألقيت نفسى بين ذراعيه ، دون أن أبكى ..

كان هو يبكى فى حرارة ، وكانت دموعه تبلل وجهى ، وهو يقول فى ألم :

– سامحنى يا بنى .. سامحنى ..

لم أدرك معنى كلماته هذه أبداً ..

لم أدرك أنها اعتراف صريح بجرمه ..

لم أدرك ذلك إلا منذ يومين اثنين ..

لم أدركه إلا بعد أن ارتكبت جريمتى أنا ..

لحظتها لم أدرك ذلك ، ولم أحاول أن أدركه، فكل ما كنت أشعر به فى هذه اللحظة هو أنه أبى ، وهو أنه ضحية لذلك القاضى القاتل ، الذى تلا عليه الحكم بإعدامه ..

وحاول جنود الشرطة منعه من معانقتى ، إلا أن

الضابط المرافق لهم نهرهم فى شدة ، وربّت على شعرى فى حنان ، ثم وقف هادئاً ، ينتظر انتهاء أبى من إرْواء وجهى وجسدى بدموعه ..

ولم أنس وجه هذا الضابط أبداً ..

لم أنس أنه كان صاحب لمسة الحنان الوحيدة ، فى تلك اللحظات القاسية ..

ولم أنس كلماته الحانية ، وهو يربّت على رأسى مرة أخرى ، ويقول فى عطف ورقة :

— معذرة يا صغيرى .. لا يمكننا الانتظار أكثر من ذلك ..

يومها منحته نظرة امتنان عميقة ، وحفرت ملامحه فى رأسى ..

وانحنيت على كف أبى أقبلها ، وأنا أغمغم فى حزم :

— سأنتقم لك يا أبى .. سأنتقم من قاتلك .

يومها لمحت فى عينى أبى حزناً عميقاً ، ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة ، وترك رجال الشرطة يقودونه فى استسلام ، وهو يتصوَّر أنها هذيان طفل صغير جريح ..

وكانت آخر مرة أرى فيها أبى ..

لقد تركته — حينئذ — وعدت إلى أمى التى استعادت وعيها ، وعادت تنخرط فى بكاء حار ، وتركتها تضم كفى الصغيرة فى كفها ، وتمضى بى خارج القاعة، وهى تترنح كطير ذبيح ..

وعلى باب المحكمة ، رأيت القاضى ..

كان يهم بركوب سيارته الصغيرة ، وإلى جواره زوجته الجميلة الرقيقة ، وهى تحمل على ساقيها طفلة صغيرة ، فى أول سنوات عمرها ، لها نفس وجه أبيها المشرب بالحمرة ، ونفس ملامح أمها الرقيقة الجميلة ، وشعرها الأشقر الناعم الطويل ..

وازدادت كراهيتى ، وتضاعف بغضى ..

شعرت أننى أكره القاضى ، وابنته ، وزوجته ..

أكره هذه الأسرة ، التى حطم عائلها أسرتى ، وحوّلنى بكلمة من بين شفتيه إلى يتيم بائس ..

وعدت مع أمى إلى منزلنا الصغير ..

وبدأت حياتنا تشبه الجحيم ..

لقد تحاشى الجيران مقابلتنا والتحدث إلينا ، وكأننا نحمل وباء خطيراً ، أو كأننا مخلوقات حقيرة ، لا تستحق الشفقة أو العطف ..

حتى الكرماء منهم ، كانوا يكتفون بتمتمات غامضة آسفة وبمصافحة سريعة ، ثم يهرولون مبتعدين ، وكأنما يخزيهم أن يتحدثوا إلينا أو يصافحونا ..

حتى أقارب أمى وأقارب أبى ، ابتعدوا عنا وتحاشونا ، ولم يحاولوا حتى مواساتنا ، أو سؤالنا عما نحتاج إليه ..

وزادنى هذا بغضاً وكراهية ..

وتضاعفت رغبتى فى الانتقام ..

وفى تلك الليلة ، وبينما كنت أرقد إلى جوار أمى فى فراش أبى ، دون أن يغمض لنا جفن ، غمغمت فى حنق :

- سأنتقم لأبى يا أمى .

ظلت صامتة لحظات ، ثم رفعت رأسها ، وطبعت

على وجنتى قبلة حانية ، مبللة بدموعها ، ثم تمتمت فى مرارة :

- انزع هذه الأفكار السوداء من رأسك يا (عادل) ، وصلِّ لله (سبحانه وتعالى) واطلب لوالدك مغفرته ورحمته ..

أردت أن أعترض ، وأن أشرح لها وجهة نظرى ، إلا أننى خشيت أن أزيد من آلامها ، فقبلتها فى حنان ، واستلقيت مفتوح العينين ، وذهنى يسترجع عشرات المشاهد ..

مشهد القاضى ، وهو ينطق حكم الإعدام فى هدوء ..

ومشهد أبى ، وهم يجذبونه إلى الخارج ..

ومشهد أسرة القاضى ، فى سيارته الأنيقة الصغيرة ..

وأقسمت فى أعماقى أن أنتقم ..

ولكن كيف ؟ ..

وعلى الرغم من سنوات عمرى العشر ، وعلى الرغم

من حـداثة عمرى ، برزت فى رأسى فجأة فكرة شيطانية ..

وامتلأ قلبى بارتياح زائف ..

ارتياح مبعثه الشيطان ..

شيطان الانتقام الأسود ..

* * *



٣ ـ سنوات العذاب ..

لا يمكنك أن تتصور كم حملت لنا السنوات التالية من الشقاء والعذاب ..

لا أحد يمكنه أن يتصور العذاب ، ما لم يجرع كأسه ، أو يصطلى بناره ..

ولقد جرعنا ـ أمى وأنا ـ الكأس حتى الثمالة ، واكتوينا بالنار حتى نخرت عظامنا ..

لقد تم تنفيذ حكم الإعدام فى والدى ، بعد شهر واحد من النطق بالحكم ، وكأنما كان جلادوه يتلهفون شوقاً لتلك اللحظة ، ولقد قضت أمى ذلك اليوم المشئوم ، من طلعة الشمس ، وحتى منتصف الليل تبكى فى حرقة ، وأنا أجلس إلى جوارها صامتاً شارداً ، وكل دمعة تنهمر من عينيها تذكى نار غليلى وحقدى ..

وتناقصت مدخرات أمى فى سرعة ، وبدأنا نعانى ما يطلق عليه الأدباء فى حذلقة اسم (شظف العيش) ،

دون أن يدرك أحدهم كل الآلام والمرارة ، التى تنطوى عليها هذه العبارة الأنيقة ..

لم يدرك أحدهم كيف يمكن أن تتحول كسرة من الخبز إلى وجبة غذائية ، ولا كيف يمكن لطفل فى مرحلة النمو أن يمتلك سروالا واحداً لا غير ، لسنوات عديدة ، حتى يتفتق وتملأه الرقع والثقوب ، ويصير عنواناً للفقر المدقع ، والهوان الشديد ..

شىء واحد حرصت عليه أمى ، كما يحرص الإنسان على حياته نفسها ..

أن أواصل تعليمى ..

لقد كانت تقتطع من قوتها لتدفع مصاريف المدرسة ، ولتبتاع لى الأوراق ، وأدوات الكتابة ..

وهى تزداد شحوباً ونحولا ..

وكان أقل ما يمكننى تقديمه لها ، هو أن أتفوق فى دراستى ..

وكان ترتيبى دائماً الأول ..

كان جميع من بالمدرسة يعلمون مدى فقرى ، وكان هذا يزيدهم إعجاباً بتفوقى ..

وكنت أنا ، على الرغم من انطوائى ، وإحساسى بالهوان وقلة الحيلة ، شديد الاعتزاز بكرامتى وكبريائى ، حتى أنه ذات يوم أشفق علىّ ناظر المدرسة ، فاستدعانى وحدى إلى حجرته ، وهنأنى على تفوقى ، وفوجئت به يمنحنى عشرة جنيهات ..

يومها شعرت بجرح عميق فى كرامتى ، وبألم مبرّح فى كبريائى ، ودون أن أشعر تفجرت الدموع من عينىّ ، ورحت أبكى فى ألم ومذلة ومرارة ..

وشعر الناظر الطيب القلب ، الكريم النفس بما يعتمل فى أعماقى ..

أدرك سر بكائى وآلامى ، فربّت على كتفى فى إشفاق ، وقال فى حنان :

— اغفر لى يا ولدى .. لقد جرحتك وأنا أبتغى مداواتك .. اغفر لى ..

ثم ابتسم فى وجهى ابتسامة تمتلئ بالطيبة والعطف وهو يستطرد :

ـ تذكر كلماتى هذه دائماً يا ولدى .. إن كبرياءك وإصرارك سيكونان سلاحك فى هذه الحياة ، وسيكون لك شأن عظيم فى المستقبل .

يا له من رجل رائع كريم !!

ترى كيف سيكون وقع الأمر عليه ، حينما يعلم بما اقترفت ؟ ..

المهم أن كلماته هذه بعثت فى أعماقى مزيداً من الحماس ، ومن الرغبة فى الانتقام ..

وقررت أن أحمل بعض العبء عن كتفى أمى المسكينة ..

ولكن كيف ؟ ..

أخذت أدير الأمر فى رأسى ، وأقلبه على كل الوجوه ، حتى توصلت إلى قرار خطير ..

كان لا بد لى من أن أعمل ، نظير أى أجر ، يمكنه أن يزيح بعض الحمل عن كاهل أمى ، على أن أبذل

جهداً مضاعفاً للمحافظة على تفوّق فى دراستى ..

ووضعت خطتى موضع التنفيذ على الفور ، وفى سرية تامة ..

أقنعت أمى أننى سأحصل على دروس إضافية مجانية مساء كل يوم فى المدرسة ، وأسعدها ذلك كثيراً ، ربما لأنها مجانية ، وإن خالجها شعور بالإشفاق على المجهود الإضافى الذى سأبذله ، خاصة أننى أملك هذا الجسد النحيل منذ طفولتى ..

وأخذت أبحث فى همة ونشاط عن عمل .. أى عمل..

حاولت أن أعمل صبىّ ميكانيكى ، أو عاملا فى مطعم صغير ، أو حتى ماسح أحذية ..

ووقفت مواعيد الدراسة عقبة أمام كل عمل أجده ..

حتى وفقنى الله (سبحانه وتعالى) أخيراً إلى عمل بسيط ، ألا وهو معاونة رجل عجوز ، فى محل يمتلكه لتأجير الدراجات للأطفال ..

وكان علىّ بالفعل أن أبذل جهداً يفوق قدرة صبىّ

فى مثل عمرى ، فقد كنت أذهب إلى مدرستى فى الصباح ، وأعود منها لأتناول غذاءً فقيراً مع أمى ، ثم أنطلق إلى محل الدراجات ، فأرتدى سروالا قديماً ، منحنى إياه صاحب المحل العجوز ، وأعاونه فى همة ونشاط حتى السابعة مساء ، وينقدنى أجرى فى المساء ، فأعود به إلى المنزل ، وأنهمك فى استذكار دروسى حتى ما بعد منتصف الليل بكثير ..

وواجهتنى مشكلة أخرى ، لم أحسب لها حساباً عندما وضعت خطتى ..

كيف يمكننى أن أمنح أمى ما أحصل عليه من أجر؟

كيف يمكننى أن أشرح لها ما أفعله ؟ ..

لم يكن ذلك الخاطر قد دار بخلدى ، فى فورة حماسى لمعاونة أمى ، ولكنه بدا لى – فى تلك اللحظة – عائقاً قويًّا ، يحول بينى وبين معاونتها بالقروش الضئيلة التى أربحها ..

وأثار ذلك الأمر حيرتى وتوترى ، وارتباكى ، فاكتفيت بادخار كل ما أربحه ، دون أن أنفق منه

قرشاً واحداً ، حتى أجد الوسيلة المناسبة لشرح الأمر لأمى ..

ثم حدث ما قلب الأمور كلها رأساً على عقب ..

كان ذلك فى أول أيام الإجازة الصيفية ، وقد بدأت أنا ألتقط أنفاسى بعد انتهاء الامتحانات ، وبرزت أمامى مشكلة إيجاد عذر جديد ، يبرر غيابى عن المنزل فى فترة ما بعد الظهر ، حتى يمكننى أن أواصل عملى فى محل الدراجات ..

وعندما أربكنى الأمر طويلا ، تعللت أمامها بأننى سأخرج للتنزه بعض الوقت ، بعد أن أنهيت امتحاناتى .

ووافقت أمى ، وقبلتنى فى حنان ، ووضعت فى يدى بعض القروش القليلة ، حتى يمكننى الشعور ببهجة بدء الإجازة ، ولكن تصرفها هذا ضاعف من آلامى وحيرتى وعذابى ، وسرت على قدمىَّ إلى محل الدراجات وأنا شارد حزين ، وقلبى يغلى برغبة متضاعفة فى الانتقام من القاضى الذى صنع بحياتنا كل ذلك ..

ووصلت إلى محل عملى ، وارتديت ذلك السروال

القديم ، الذى امتلأ ببقع الشحم والأتربة ، ومضيت أعاون صاحب المحل العجوز كعادتى ، حتى صك مسامعى هتاف يموج بالدهشة والاستنكار ..

هتاف يحمل اسمى ..

اسمى فقط ..

وانهار كيانى كله حينما رفعت عينى إلى صاحب الهتاف ، وخيل إلى لحظتها أن الدماء قد فارقت جسدى النحيل كله ، فبات يابساً كعمود من الخشب القديم ، وأن قلبى قد خفق مرة واحدة فى قوة ، ثم توقف عن الخفقان نهائيًا ..

لقد كنت أتطلّع إلى وجه (ماجد) .. زميلى فى المدرسة ، ومنافسى الأول على مركز الصدارة فى نتائج الامتحانات ..

كان (ماجد) ، الذى جاء لاستئجار دراجة ، يحدّق فى وجهى بامتعاض ودهشة ، وينقل بصره بين وجهى الشاحب ، وسروالى الملىء بالبقع ، ثم لم يلبث

أن ابتسم فى سخرية ، وناولنى ورقة مالية من فئة ربع الجنيه ، وهو يقول فى تهكم :

ـ أريد دراجة جيدة يا (أسطى عادل) .. وسأجزل لك العطاء .

تناولت الورقة المالية من يده بحركة آلية ، وشعرت بها فى راحتى وكأنها مصنوعة من معدن حاد ملتهب ، يدمى يدى ويحرقها كالجمر ، ودون أن أدير عينى عن وجهه ، ثم استدرت فى هدوء ، وتناولت دراجة ، ودفعتها إليه ، وأنا أقول فى خشونة :

ـ **هل تعجبك هذه ؟**

تطلّع إلى الدراجة فى غطرسة ، ثم عاد يبتسم فى خبث ، وهو يقول :

ـ لا بأس .. شكراً يا (أسطى عادل) .

ظللت ثابتاً، جامداً كالتمثال ،حتى ابتعد بدراجته ، ثم ألقيت الورقة المالية فى حنق ، وقلت لصاحب المحل العجوز إننى أشعر بتعب شديد ، وعدت أرتدى سروالى ، الذى لا يختلف كثيراً عن السروال القديم ،

وانطلقت عائداً إلى منزلى ، وأنا أبكى فى مرارة ، ومذلة ، وهوان ..

وكان من المستحيل أن أخفى الأمر على أمى ، وهى ترانى أدخل إلى المنزل بعينين محمرتين من أثر البكاء الطويل ، ولم تكد تسألنى فى لوعة وجزع عما أصابنى ، حتى وجدت نفسى أقفز بين ذراعيها ، وأنخرط فى بكاء حار ، وأنا أروى لها كل شىء ..

واستمعت إلى أمى فى صبر ، وهى ترفع حاجبيها فى حنان وإشفاق ، ثم ضمتنى إلى صدرها ، وصمتت طويلا ، وكأنها تفكر فى الأمر ، قبل أن تسألنى فى هدوء :

– وماذا فعلت بالنقود التى ربحتها طوال عملك يا (عادل) ؟

قفزت من بين ذراعيها ، وهرعت إلى حجرتى ، وعدت إليها بالعلبة المصنوعة من الورق المقوّى ، والتى أحتفظ فيها بكل ما ربحته ، وأفرغتها إلى جوارها ، فتطلعت إليها فى حنان ، ثم ابتسمت ، وهى تقول :

– لقد أصبحت رجلا قبل الأوان يا (عادل) .

هتفت فى حماس :

– بل أنا رجل منذ زمن يا أماه .

اتسعت ابتسامتها ، وانحنت تقبل وجنتى ، وتضمنى إلى صدرها فى حنان ، ثم قالت فى هدوء :

– إنك لن تعمل حتى تنتهى من دراستك تماماً يا (عادل) ..

هتفت فى اعتراض :

– ولكن يا أمى ..

قاطعتنى فى حزم :

– لا يوجد لكن يا (عادل) ، إن الأمل الوحيد الذى أحيا من أجله هو أن أراك فى الجامعة ، وأراك وأنت تحصل على شهادة عالية ..

انكمشت فى صدرها ، وأنا أغمغم فى أسى :

– ولكن كيف نحيا يا أمى ؟

ربتت على رأسى فى حنان ، وهى تقول :

– لا تقلق من أجـــل ذلك يا ولدى .. الله (سبحانه وتعالى) لا ينسى مخلوقاته أبداً ..

ثم صمتت لحظة ، قبل أن تستطرد فى لهجة بعثت فى قلبى الأمل :

– ولقد أوجدت أنت وسيلة العيش يا ولدى .

لم أفهم ما تعنيه ، ولم أحاول أن أسألها ، وتركتها تحصى مدخراتى فى اهتمام، ثم تغادر المنزل فى صمت ..

وحينما عادت فهمت ما كانت تعنيه ..

لقد كانت تحمل – فى صعوبة – ماكينة صغيرة ، علمت منها أنها ابتاعتها بالتقسيط ، وأن مدخراتى كانت تكفى لدفع مقدم ثمنها ..

وملأنى ذلك شعوراً بالفخر ..

وامتلأ قلبى بالأمل ..

الأمل فى انتهاء سنوات العذاب ..

والأمل فى اقتراب موعد انتقامى ، الذى لم أنسه أبداً ..

• • •

٤ – لمحة الأمل ..

تبدلت أحوالنا كثيراً منذ ذلك الحين ..

أضاءت فى حياتنا لمحة أمل ..

لم يحدث ذلك دفعة واحدة ، ولم يتم فى غمضة عين ، وإنما استغرق عامين كاملين ، قبل أن أشـعر بالأمان والراحة ..

منذ ابتاعت أمى ماكينة الحياكة ، أسرعت تعلن ذلك فى الحى كله ، وتؤكد استعدادها لحياكة ثياب الجارات بأثمان زهيدة ..

ولم تلق دعوتها صدى سريعاً فى نفوس أبناء الحى ، الذين لم ينسـوا بعد أن أبى قد لقى ربه مدلى من حبل المشنقة ، ولكن لم يلبث بعض الكرماء ، من ذوى الشهامة منهم أن وجدوها فرصة سانحة ، لمد يد العون إلينا ، دون جرح مشاعرنا وكرامتنا ..

وبدأ الأمر بقطعة قماش واحدة ، أحضرتها إحدى جاراتنا على استحياء ، وسهرت أمى الليل كله لتصنع

من قطعة القماش ، ومع أول نسمات الفجر ، ثوباً رائعاً جعل صاحبته تشهق من فرط الدهشة والإعجاب ، وهى تختطفه فى لهفة ، وتنهال من بين شفتيها عبارات الثناء على براعة أمى ومهارتها ..

وتحولت قطعة القماش إلى عشرات القطع ، وصارت الأثواب التى تصنعها أمى مثار إعجاب الجميع ، وأصبح من دواعى الفخر أن تحيك العروس أثوابها لدى أمى ، وأن يحمل أى ثوب ترتديه امرأة أو فتاة توقيع آلة الحياكة الصغيرة ..

وانتهت أيام الفقر والعوز ، وجاءت أيام الأمل ..

كنت أشعر فى البداية بالخجل ؛ لأن أمى تحيك الثياب بالأجر ، ثم لم ألبث أن استوعبت تضحيتها ، وسهرها طوال الليل لتكفل لى العيش الكريم ، فأصبحت أتيه بها فخراً ، وحبًّا ، وإعزازاً ..

وصار بمقدورنا أن نبتاع أشهى الأطعمة والمأكولات ، بدلا من كسرة الخبز الجاف ، التى كانت تخمش أمعاءنا فيما مضى ، ولكن يبدو أن سنوات

العذاب قد جعلت معدتنا تنكمش ، فلا تستوعب إلا أقل القليل من الطعام ، مهما بلغت جودته ، وكأننا قد زهدنا فى الطعام ، بعد أن صار سهلا ميسوراً ..

وأصبحت أمتلك عشرات السراويل الأنيقة ، وعشرات القمصان التى تحيكها لى أمى ، من أفخر أنواع الأقمشة ، ولكننى لم أتخل أبداً عن ذلك السروال الأسود القديم ، الذى لم أكن أمتلك غيره قديماً ..

احتفظت به ليذكرنى بالانتقام الذى أُعِدُّ له ، والذى خشيت أن أنساه وأفقده وسط رغد العيش ، الذى ملأ حياتنا أخيراً ..

وكانت أمى تدفع ثمن هذا الرغد من صحتها وجهدها ، وإن لم تشك يوماً من ذلك ، ولم تفارقها ابتسامتها الحنون أبداً ، وهى تصرّ على ألا أعاونها أبداً ، وعلى أن أمنح دراستى كل وقتى وجهدى ..

ومع ارتفاع مستوى معيشتنا ، بدأ أقارب أمى وأبى يتقربون إلينا مرة أخرى ، وكل منهم يحاول

بكلمات سخيفة ممجوجة تعليل إهماله لنا طيلة سنوات فقرنا وعذابنا ، ولم تهتم أمى بسماعهم ..

كان يكفيها سعيهم إليها ..

وكانت ترى فيه رمزاً لانتصارها ونجاحها فى دحر المحن ..

أما أنا فلم أغفر لهم أبداً ..

كنت أعاملهم دوماً بمزيج من الغطرسة والتعالى ، وكانوا يحتملون هذا الأسلوب ، ما داموا يجدون موائدنا عامرة بالطعام فى استقبالهم ، ويد أمى السخية فى خدمتهم ..

وإمعاناً فى الشعور بالنجاح والظفر ، أخرجت أمى صورة كبيرة لأبى ، وعلقتها وسط إطار فاخر فى صدر ردهة المنزل ، وأحاطتها بشريط أسود ، وكأنها تؤكد أنها لم تنسه أبداً ..

ولم يلق هذا الفعل أى اعتراض أو تعليق ، سواء من أقاربنا ، أو من زبائن أمى ..

وتعلمت من ذلك درساً لم أنسه أبداً ..

تعلمت أن القوة — كل القوة — فى المال ..

المال وحده ..

لقد جعلنا الفقر حيوانات موبوءة ، يتحاشاها الجميع ، وحوّلنا المال إلى ملوك متوّجين ، يسعى الجميع لكسب ودهم ..

لقد نسى الحى كله جريمة أبى ؛ لأننا أصبحنا أثرياء ..

ربما لم ينسوها ، وربما كانوا يتهامسون بها فى مجالسهم الخاصة ، ولكن أحدهم لم يعد يشير إليها فى المجالس العامة أبداً ..

وتعلمت هذا الدرس ، ولم أنسه أبداً ، وأصبح شغلى الشاغل هو أن أدخر بقدر استطاعتى ، وأن أهتم كثيراً بتأنقى فى الوقت ذاته ، حتى يؤكد مظهرى مدى ثرائى ، وأحظى بالاحترام الذى افتقدته طويلا ..

وعلى الرغم من نحولى ، كنت وسيماً ، بما يتفق مع أناقتى المبالغ فيها دائماً ..

ولم تنس أمى ، التى وخط الشيب رأسها كله قبل

الأوان ، ذلك الدرس أيضاً ، وإن اختلفت ردود فعل قلبها الطيب ، عن رد فعل قلبي الذى يمتلئ بالكراهية والبغضاء ..

لم تنس أمى أيام الفقر المدقع ، ولم تنس أبداً أنه هناك من يحيون مثل حياتنا السابقة القاسية ، وإن يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ..

ولم تتوان أمى عن معاونة عشرات الأسر الفقيرة فى سرية تامة ، دون أن يشعر بذلك أحد ، حتى أنا ، لولا أن علمت بمحض الصدفة ، وازددت حبًّا لتلك الأم الحانية العطوف ..

وسرعان ما استأجرت أمى طابقاً كاملا فى بناية جديدة عند ناصية الحى ، تطل على الشارع الرئيسى ، الذى كنا نطلق عليه فى حداثتنا اسم (الشارع الكبير) ، وحوَّلته إلى معرض للأزياء ، وأصبحت تكتفى باختيار ذوق الثوب ، وقص القماش ، ثم تترك الباقى لعشرات الفتيات ، اللاتى كن يشعرن بالفخر ؛ لأنهن يعملن فى

معرض أمى ، التى ذاع صيتها ، وصار زبائنها من كبار الأثرياء وذوى المناصب الرفيعة ..

وحصلت أنا على الثانوية العامة ، بالقسم الأدبى ، بتفوق ، وكانت فرحة أمى غامرة لا توصف ، وأهدتنى يومها سيارة أنيقة جديدة ، جعلتنى شديد الزهو والفخر ، وأنا أذهب بها فى أول يوم لى بكلية الحقوق ..

ومن العجيب أن زميلى القديم (ماجد) ، الذى سخر منى يوم وجدنى أعمل فى محل الدراجات ، والذى التحق معى بكلية الحقوق ، صار يتقرب منى بوسيلة متزلفة منافقة ، بعد أن صرت غنيًّا ، أنيقاً ..

ومرة أخرى تأكد الدرس فى أعماق ..

المال وحده هو القوة ..

ووقفت أتطلّع إلى كلية الحقوق فى فخر وسعادة ..

كان الوصول إليها هو الخطوة الأولى ، فى طريق خطة الانتقام التى رسمتها منذ ثمانى سنوات ..

كان علىَّ أن أصارع عدوِّى فى عقر داره ..

كان علىّ أن أكتسب نفس القوة التى يتمتع بها ..

قوة القانون ..

وكان وصولى إلى كلية الحقوق هو لمحة الأمل ..

لمحة الأمل فى تحقيق انتقامى ..

ويا له من انتقام !!

* * *



٥ ـ وجه القاتل ..

معذرة يا سيادة وكيل النيابة ..

سأتخطى ثلاث سنوات كاملة من قصة حياتى دفعة واحدة ..

سأتخطاها ؛ لأنه لم يحدث فيها ما يستحق الذكر ..

صحيح أن أعمال أمى قد ازدهرت كثيراً خلال هذه السنوات الثلاث ، حتى لم نعد ـ هى وأنا ـ نذكر أيام الفقر وسنوات العذاب ، وإن لم يتخل وجهانا عن النحول والشحوب ، وكأنما هما البصمة المميزة لأسرتنا الصغيرة.

وصحيح أننى نجحت فى السنوات الثلاث الأولى فى كلية الحقوق بدرجة (جيّد جدًّا) ، محافظاً على تفوقى التقليدى الذى لم يزعزع الثراء أركانه ، كما صمد فى وجه الفقر ، إلا أن كل ذلك كان يبدو تسلسلا عاديًّا للحياة والزمن ..

ولكن هذه السنوات الثلاث لم تمض دون تغيير بالطبع ..

إن انتقال الإنسان من فاقة الفقر إلى نعيم الثراء ، لا يمكن أن يحدث دون أن يتغير الإنسان نفسه أو يتبدل مهما تصور هو أن ذلك لم يحدث ..

ولقد حدث التغيير دون أن أنتبه إليه ..

حدث تدريجيًّا بطيئاً ، فى هدوء وبساطة ..

لقد خبَت جذوة الانتقام فى أعماقى كثيراً ..

صحيح أنها لم تنطفئ تماماً ، إلا أنها لم تعد بنفس التأجج السابق ، فعذاب الفقر كان يذكيها ، ويزيدها اشتعالا ، أما نعيم الثراء فقد كان يخمدها ..

كانت صورة أبى المعلقة فى صدر ردهة منزلنا تثير حماسى فى البداية ، وتلهب مشاعرى ورغبتى فى الانتقام ، إلا أنها ، ومع مرور الوقت ، صارت شيئاً تقليديًّا مألوفاً ، أكتفى منه بنظرة عابرة ، أو لمحة خاملة ..

حتى ذلك السروال الأسود القديم ، انزوى فى ركن مهمل أسفل صِوان ملابسى الممتلئ بأحدث الأزياء ..

كنت أذكر كثيراً رغبتى فى الانتقام ، وأحاول

أن أدفع إلى أعماقى حماساً مصطنعاً ، ثم أعود فأتجاهله ، وأمضى فى حياتى فى بساطة ..

ولقد تلقفتنى تلك المشاعر التى تنتاب الشباب ، وانتزعتنى من أفكارى السوداء طويلا ، فلقد أصبحت فى الحادية والعشرين من عمرى ، وازدادت وسامتى وأناقتى بمرور الوقت ، وأصبحت أشعر بالسعادة والزهو ، حينما تتسلل إلى مسامعى تلك التنهدات ، التى تنطلق من صدور الفتيات العاملات فى معرض أمى ، والتى تعبر عن إعجابهن بوسامتى وفتوَّتى ، كلما ذهبت لزيارة أمى ، وأنا أرتدى حلة أنيقة ، وأصفف شعرى فى عناية كعادتى ..

وكنت ألمح نظرات الإعجاب فى عيون زميلاتى فى الكلية ، وفى تودُّد بعضهن إلىَّ ، وفى محاولات العابثات منهن التقرب منى بأساليب سخيفة مفضوحة ، ولكن سنوات الشقاء الأولى كانت قد طبعتنى بالرصانة والاتزان ، فلم أحاول أبداً إقامة أية علاقة من أى نوع مع إحداهن ..

ومضت حياتى هادئة حتى ذلك اليوم الذى تضافرت فيه الأحداث ، لتوقد فى أعماقى شعلة الانتقام المتأججة ، وتعود بها إلى التهابها القديم ..

كان ذلك فى أول أيام العام الدراسى الأخير فى الكلية ، وكنت أنطلق إلى هناك فى سيارة جديدة ، أهدتنى إياها أمى كالعادة ، وبينما كنت أستعد لدخول ساحة الكلية بسيارتى ، اندفعت فجأة من الساحة سيارة صغيرة ، وقبل أن أنجح فى تفاديها حدث الاصطدام ..

اصطدمت السيارة الصغيرة بالجانب الأيمن من سيارتى الجديدة ، وسمعت صوت مصباح سيارتى الجديدة وهو يتهشم ، ورأيت قطعه المحطمة الصغيرة تتطاير بعيداً ..

وسرَى فى أعماقى غضب شديد ، وقفزت من سيارتى ثائراً، حانقاً، وأنا أنوى الشجار مع قائد السيارة الصغيرة ..

ولكننى تسمَّرت فجأة فى مكانى ..

لقد كانت تقود السيارة الصغيرة امرأة جميلة رقيقة..

لم يكن جمال المرأة هو الذى سمَّرنى فى مكانى ..

لم يكن شعرها الأشقر الناعم الجميل ، ولا شفتاها الورديتان الصغيرتان ، ولا رقتها الواضحة ، على الرغم من ارتباكها وتلعثمها وهى تغادر السيارة ..

ولم يكن السبب هو تلك الصبية التى قفزت خلفها فى خوف ، والتى تبدو أشبه بملاك صغير ، بالغ الجمال والرقة ..

لم يكن أيًّا من هذه الأسباب ، وإنما كان شيئاً أقوى ..

لقد كانت قائدة السيارة هى زوجة القاتل ..

زوجـة القاضى الذى أرسـل والدى إلى حبـل المشنقة ..

لم أنس ملامحها أبداً على الرغم من مرور أحدَ عشر عاماً على رؤيتى لها أمام المحكمة لأول وآخر مرة ..

كانت قد تقدمت فى العمر بالطبع ، إلا أن ملامحها وجمالها لم يختلفاً كثيراً ..

ووقفت أتطلّع إليها فى ذهول ، وتصورت أن

القدر قد ألقى بها فى طريقى ؛ ليبعث فى أعماقى ذلك الثأر الذى خبا فى السنوات الأخيرة ..

ثم نقلت عينى إلى الصغيرة ..

كانت تحمل نفس جمال أمها ورقتها ، وتلك البشرة البيضاء المشربة بالحمرة التى يملكها والدها ..

وعاد عقلى فى لحظة واحدة إلى ذكريات الماضى السحيق ..

تذكرت لحظة المحاكمة ..

إعدام أبى ..

سنوات العذاب ..

وجه القاضى ..

كانت آخر صورة أحتفظ بها ذهنى ، هى وجه القاضى ، وابتسامته الهادئة الرصينة ..

وانتزعتنى زوجة القاضى من تلك الذكريات الخاطفة ، وهى تغمغم فى ارتباك :

— أنا المخطئة .. لقد كنت مسرعة أكثر من اللازم .. سأتحمل جميع المصاريف اللازمة لإصلاح سيارتك و ..

لم أستمع إلى باقى عبارتها ..

كنت لحظتها أفكر فى تمزيق رقتها بكلمات جارحة عنيفة ..

كنت أفكر فى إهانتها ، وتجريحها ..

كانت فرصة سانحة لرد الضربة ، التى حطّم بها زوجها أسرتى ..

ولكن ما كان الشيطان ليترك مثل هذه الفرصة النادرة ..

وأسرع الشيطان يبث سمومه فى أعماقى ، ويزرع فيها الشر ، ويضع فى عقلى خطة انتقامية بشعة ، وأنا أنقل بصرى بين الأم وصغيرتها ..

ولم تكن مهمة الشيطان عسيرة ..

لقد كان قلبى الأسود أرضاً خصبة لنبت الشر ..

واختمرت خطة الانتقام فى ذهنى فى لحظة واحدة ، ووجدت صدى فى أعماقى ، واستقرت فى قلبى المتحجّر قانعة راضية ..

وبدلا من أن أنفجر ثائراً ، وأنطلق فى سباب

ساخط ، ابتسمت فى هدوء ودعة ، وقلت للسيدة فى لهجة متفهمة ودودة :

– لا عليك يا سيدتى .. كلنا معرَّض للخطإ .

ندَّت من صدرها زفرة ارتياح ، قبل أن تقول فى حرارة :

– ولكننى أُصرُّ على تحمل كل التكاليف و ..

قاطعتها فى رقة :

– كلاَّ .. لقد شاء القدر أن يحدث ذلك ، وأنا لا أرفض أبداً أحكامه .

حاولت إقناعى بدفع التكاليف ، ولكننى رفضت فى إصرار ، وتركتها تنصرف فى هدوء ، وهى تقدم اعتذاراتها فى خجل ورقة وعذوبة ..

وتابعت السيارة الصغيرة ببصرى وهى تنصرف ، وبداخلها زوجة القاضى وابنته ، ورقص قلبى الأسود طرباً ..

لقد وضعت قدمى على أول طريق الانتقام ..

ثم دار فى ذهنى تساؤل جديد ..

ماذا كانت تفعل زوجة القاضى هنا ؟ ..

شغلنى هذا السؤال ، حتى أتى جوابه فجأة ، وعلى نحو غير ما أتوقع ، فى أول محاضرات العام الجديد ..

كنا قد دخلنا إلى قاعة المحاضرات ، واتخذ كل منا مقعده ، وساد الهدوء بعد فترة طويلة من الضوضاء ، ثم دخل عميد الكلية إلى قاعة المحاضرات ، يتبعه رجل هادئ وقور ، أشيب الشعر ، وواجهنا العميد ، وهو يبتسم قائلا :

– يشرفنا يا أبنائى أن ينضم إلى هيئة تدريس الكلية أستاذ غير متفرغ ، يُعَدُّ من أعظم رجال القانون فى مصر ، ليقوم بتدريس مادة (القانون الجنائى) لطلبة السنة النهائية .

ثم دفع الرجل الوقور إلى جواره فى رفق ، وهو يستطرد فى حماس :

– المستشار (حسن عبد الجليل) ، رئيس محكمة النقض السابق .

أجابه جميع الطلاب بتصفيق حماسىّ قوىّ .. إلاَّ أنا ..

كنت فى عالم آخر ، أحدِّق فى وجه المستشار (حسن) ، ذى البشرة البيضاء المشربة بالحمرة ، والابتسامة الهادئة الوقور ..

لقد كان وجه القاضى الذى حطّم أسرتى يوماً ..

وجه القاتل ..

* * *



٦ - بداية الطريق ..

لم يكن من العسير أن أجمع كل ما يمكننى من معلومات عن المستشار (حسن) ، بعد أن أصبح أستاذاً غير متفرغ فى الكلية ، وبعد أن تأججت نار الانتقام فى أعماقى من جديد ..

علمت أنه قد وصل إلى منصب المستشار فى سهولة ، نظراً لملف خدمته المشرف ، وأنه قد أصبح لفترة طويلة رئيساً لنادى القضاة ، ثم قرر يوماً أن يترك كل هذا ، ويفتتح مكتباً للمحاماة ..

واستقال من منصبه — بناءً على رغبته — وسرعان ما أثث مكتباً أنيقاً فى حىّ راق ، وذاعت شهرته كمحام كفء ، لم يخسر قضية واحدة فى حياته ..

وكان من الطبيعى أن تلجأ كلية الحقوق إلى الإفادة من خبرته وبراعته ، فمنحته وظيفة أستاذ غير متفرغ ، زادت من شهرته وتألقه ..

ولم ينجب المستشار وزوجته سوى ابنة واحدة ..

(هالة) ..

ذلك الملاك الذى رأيته إلى جوار أمه الجميلة ..

ومن العجيب أن الرغبـة فى الانتقـام حجبت عن قلبى كل أثر للشفقة والرحمة، فوضعت خطتى الانتقامية، الشيطانية ، وهدفى (هالة) بالذات ..

ولقد صوَّر لى الانتقام الأسود الأعمى ، أن تحطيم المستشار (حسن) ، وتمزيقه إرباً ، لا يكون إلاَّ عن طريق ابنته الوحيدة ، التى يمنحها كل حبه ، ويعلق عليها كل آماله ..

وكانت خطتى طويلة المدى .. تحتاج إلى الكثير من الصبر والبراعة ..

والشيطان يمكنه أن يصبر طويلا ، مادام سيضم إلى رعاياه فى النهاية ، فى أعماق الجحيم ، تلميذاً مطيعاً ، وعبداً صاغراً ..

وكانت خطتى تعتمـد ـ أول ما تعتمـد ـ على التقرب من المستشار (حسن) ، ونيل ثقته ورضاه ..

وأوليت اهتماماً كبيراً لمادة (القانون الجنائى) ،

وصرت ألتهمها التهاماً ، وأنبش فى أعماقها بحثاً عن الثغرات والتعقيدات ، ثم ألتصق بالمستشار (حسن) بعد أن ينتهى من إلقاء محاضرته ، وأمطره بالأسئلة التى تؤكد تعمقى فى مادته ، واهتمامى الشديد بها ..

ولقد أفلح هذا الأسلوب تماماً ، فلقد بدأ المستشار (حسن) يولينى اهتمامه ورعايته ، ويرمقنى بنظرات الإعجاب والفخر ، بل إنه ربَّت على كتفى يوماً فى حنان ، وهو يقول :

ـ أنت طالب ممتاز يا (عادل) ، وسيكون لك شأن عظيم ، حينما تلتحق بالنيابة ، بعد حصـولك على درجة (الليسانس) بتفوق بإذن الله .

ومن سخرية القدر أنه كان يعلم اسمى كاملا ، دون أن ينتبه إلى تشابهه مع اسم الرجل الذى أصدر حكمـه بإعدامه ..

أو أنه لم يعد يذكر ذلك ..

وكان هذا يزيدنى بغضاً له وكراهية ..

ولقد كنت أنتظر تعليقه هذا طويلا ، حتى أنتقل

إلى الجزء الثانى من خطتى ، فأسرعت أقول فى حماس :

ـ كلاً يا سيدى .. إننى لا أنوى العمل فى سلك النيابة .

رفع حاجبيه فى دهشة ، وهو يحدّق فى وجهى ، وكأنما يرانى لأول مرة ، ثم قال فى هدوء وحنان :

ـ لماذا يا ولدى ؟ .. إن حلم المتفوقين فى كلية الحقوق ، هو العمل فى النيابة .

لم يخدعنى حنانه الزائف ..

هكذا تصورت حنانه فى ذلك الوقت ..

حناناً زائفاً منافقاً ..

لم أتخيل يومها أن الرجل ، الذى أصدر حكماً بإعدام أبى ، يمكنه أن يتصف بالحنان ..

لم أستوعب ـ حينذاك ـ أنه هناك فارق كبير بين عمل الإنسان وطبيعته الشخصية ..

لم أفهم ـ يومئذ ـ أنه كان يؤدّى عمله ، حينما أصدر ذلك الحكم ..

كان شيطان الانتقام يحجب عن عينى كل الحقائق والمفاهيم ..

لم أكن أرى إلاّ ما أريد أن أراه فقط ، أما ما يخالف ذلك فقد كان عقلى الباطن يحجبه ، ويلقيه خلف ظلمات الشر ..

وأجبته فى حماس مصطنع :

ـ إننى أعشق المحاماة ، وأتمنى أن أعمل بها ، فهى الطريق الأمثل لتحقيق العدالة .

شرد ببصره لحظات ، قبل أن يجيب فى هدوء :

ـ كل العاملين فى هذا المجال يسعون لتحقيق العدالة يا ولدى .

ـ ولكن النيابة تسعى دوماً للاتهام ، أما المحاماة فمهمتها السعى خلف البراءة .

ـ ليس دائماً يا ولدى ، فمحامى الجانى قد يسعى لتبرئته ، أما محامى المجنى عليه ، فهو يسعى دائماً لإدانته .

ـ ربما .. أما النيابة فهى تسعى للإدانة فقط .

ـ خطأ يا ولدى .. النيابة أيضاً تسعى للعدالة ،

ولكن مهمتها تحتم عليها بحث كل الأدلة والقرائن ، ثم توجيه الاتهام إلى من تشير إليه تلك الأدلة ، والقضاء وحده هو الذى يحسم الأمر فى النهاية ..

لقد نكأ جرحى دون أن يدرى ..

أصابه فى قسوة غير مقصودة ، حينما تحدث عن دَوْر القضاء ..

ولولا رغبتى الشديدة فى الانتقام ، والتى ساعدتنى على الاحتفاظ بهدوء ملامحى ، لقفزت الكراهية والبغضاء إلى وجهى ، ولسرَتْ فى صوتى ، وأنا أقول فى هدوء :

– أيًّا ماكانت الأسباب والمبرِّرات ، فأنا أحب مهنة المحاماة يا سيدى .

تطلّع إلى وجهى طويلا فى إمعان ، وكأنه يحاول أن يقرأ ما يختفى خلف ملامحى الهادئة ، وأعترف أن نظرته الفاحصة قد أربكتنى ، فغمغمت فى توتر :

– هذه هى الحقيقة يا سيدى .

ابتسم فى هدوء ، وربَّت على كتفى فى حنان ، وهو يقول :

– لا تقلق نفسك بهذا الآن يا ولدى ، احرص أولا على تفوقك ، وبعد أن تظهر النتائج النهائية يمكنك أن تتخذ قرارك ، ولو أنك تحب المحاماة حقًّا فستجد فى ممارستها النجاح – كل النجاح .

شكرته وأنا أودعه فى حرارة زائفة ، وقررت المضى فى خطتى كما قدرت من قبل ..

ومضى العام الأخير من دراستى فى بطء شديد ، وأنا أُوَجِّه حماسى كله إلى استذكار مقرراتى ، حتى بدأت الاختبارات النهائية ..

وحققت ما كنت أصبو إليه ..

نجحت فى السنة النهائية بتقدير (امتياز) ، وجاء ترتيبى الأول على الدفعة كلها ، بفارق درجات يثير الدهشة والإعجاب ..

ولا يمكنك أن تتصور فرحة أمى المسكينة فى ذلك اليوم ..

لقد أطلقت زغرودة قوية ، وضمتنى إلى صدرها فى فرح غامر ، وهى تمطر وجهى بقبلات السعادة ، ودموعها تبلل وجهى كالسيل العَرِم ..

وانتقلت فرحة أمى إلى كل العاملات فى معرضها ، فقد منحتهن مكافأة ضخمة ، تساوى مرتبهن فى شهرين كاملين ، احتفالا بنجاحى الباهر ..

وفى تلك الليلة أدركت كم كانت أمى تحب أبى (رحمه الله) ..

لقد استيقظت فى الثانية صباحاً ، على صوت نحيب مكتوم ، فتسللت فى حذر إلى ردهة المنزل القديم ، الذى رفضت أمى أن نتركه إلى منزل آخر أنيق ، على الرغم من ثرائنا ، وهالنى ما رأيت ، ومزق نياط قلبى ، الذى كنت أظن أنه لم يعد ينبض ..

لقد كانت أمى تجلس فى الردهة المظلمة ، إلا من ضوء مصباح صغير شديد الخفوت ، أمام صورة والدى ، تبكى فى حرارة ، وتتطلّع إليها فى مرارة ..

وسمعتها تهمس فى خفوت ، وكأنها تخشى أن تصل كلماتها إلىَّ :

— لقد تحقق ما كنتَ تصبو إليه يا (سالم) .. لقد نال (عادل) شهادته العليا بتفوُّق ، كما كنت تتمنى .. لقد نجحتَ يا (سالم) ..

ثم عادت تجهش بالبكاء ، وعدت أنا إلى حجرتى فى صمت ، وألقيت نفسى فوق فراشى ، ورحت أبكى فى حرارة ..

وهتف شيطان الشر فى أعماقى :

— نم هانئاً يا أبى .. لن يذهب دمك هباءً .. سأنتقم لك .. سأنتقم من قاتلك شر انتقام ..

ولم يتوقف ذلك الهتاف عن التردد فى أعماقى ، طوال تلك الليلة التى لم أذق فيها طعم النوم لحظة واحدة..

لم يتوقف حتى وأنا فى طريقى إلى الكلية فى اليوم التالى ..

لم أكن أتجه إلى الكلية نفسها فى الواقع ، وإنما إلى مكتب المستشار (حسن) ، الذى يقع فى نفس الطريق .

واستقبلنى المستشار فى حرارة ، وشدّ على يدى فى قوة ، وهو يقول :

– مبارك يا ولدى .. هأنتذا قد حققت أكثر مما كنت أتمنى .. يمكنك الآن أن تتخلى عن الالتحاق بسلك النيابة ، فهناك وظيفة تنتظرك فى هيئة التدريس بالكلية ، وأنت كفء لها .

حافظت على هدوئى ، وأنا أقول :

– ما زال رأيى لم يتغيَّر يا سيدى .. إننى أريد العمل بالمحاماة .

لوَّح بكفه وهو يبتسم ، ويقول فى حماس :

– لا يوجد أى تعارض بين هذا وذاك يا ولدى .. يمكنك أن تكون أستاذاً فى كلية الحقوق ، ومحاميًا ناجحاً فى الوقت ذاته .. لوائح الجامعة تسمح لك بذلك .

– هذه اللوائح بالذات هى ما يجعلنى أرفض وظيفة الكلية يا سيدى .

– ماذا تعنى بالضبط ؟

– إننى أكره أن أمضى عمرى كله وسط اللوائح

والقوانين والروتين .. كلاّ يا سيدى ، إننى أريد أن أكون محامياً فحسب .

ساد الصمت طويلا ، وهو يحدجنى بتلك النظرة الفاحصة ، التى تثير ارتباكى ، قبل أن يستقر جالساً خلف مكتبه ، ويسألنى فى هدوء :

– كيف يمكننى معاونتك على تحقيق حلمك هذا يا (عادل) ؟

كادت لهفتى تفضحنى وأنا أجيب عن سؤاله ..

أو هكذا تصورت ..

لقد أجبته فى لهفة وسرعة :

– أريد أن أعمل فى مكتبك يا سيدى ، حتى يمكننى أن أحصل منك على شهادة خبرة ، تتيح لى فتح مكتب محاماة خاص .

اتسعت ابتسامته ، ورأيت فيها حناناً غامراً ، كاد يعيد إلى قلبى الحياة ..

ويا ليته فعل ..

ولكن الشيطان الكامن فى أعماق منعنى من إدراك حنانه ، وهو يقول :

— لقد كنت أتمنى أن تطلب ذلك يا ولدى ..

ثم مدّ يده يصافحنى فى حرارة ، مستطرداً :

— ويمكنك أن تبدأ عملك هنا اليوم ..

وارتجفت أصابعى فى راحته وأنا أصافحه ..

ارتجفت لأنه وضعنى بنفسه على أول الطريق ..

طريق الانتقام ..

* * *



٧ — (هــالة) ..

تطلعت إلىّ أمى فى مزيج من الدهشة والهلع ، حينما أخبرتها بعزمى على رفض وظيفة هيئة التدريس فى الكلية والعمل فى مكتب للمحاماة ، وهتفت فى جزع :

— ولكن وظيفة هيئة التدريس ستمنحك مكانة اجتماعية مرموقة يا ولدى .

قلت فى رقة ، وأنا أحاول أن أخفف من وقــع الأمر عليها :

— عملى بالمحاماة أيضاً سيمنحنى مكانة مرموقة يا أمى ، وربما تفوق مكانتى كعضو هيئة تدريس فى الجامعة .

صمتت لحظة ، وكأنها تتدبر الأمر فى رأسها ، ثم سألتنى وقد عاد إليها الهدوء :

— أهذه هى رغبتك حقــًا ؟

أجبتها فى حزم :

— نعم يا أماه .

ابتسمت ابتسامتها التى تفيض حبًّا وحنانًا ، وهى تقول :

– إنك لم تعد صغيراً يا (عادل) .. افعل يا ولدى ما تراه خيراً .

أقبلت عليها أمطرها بقبلات الشكر والامتنان ، واحتضنتنى هى فى حنان غامر ، ثم كفكفت دموعها ، وهى تقول فى فرح :

– سأفتح لك أفخر مكتب محاماة فى مصر كلها ، بل فى الشرق الأوسط كله .. لقد أصبح لدينا ما يفيض عن حاجتنا من النقود و ..

قاطعتها فى قلق :

– إنها ليست مشكلة نقود يا أماه .. لابد من أن أحصل على تدريب كاف ، فى مكتب معروف للمحاماة .

ربّتت على كتفى ، وهى تقول فى حماس :

– أنت نابه متفوق يا ولدى ، ولن يبخل عليك أى مكتب للمحاماة بهذه الفرصة .

ترددت لحظة ، ثم قلت فى قلق :

– لقد عثرت على المكتب المناسب يا أماه .

ثم أسرعت أستطرد فى حماس مفتعل :

– وهو أفضل مكتب للمحاماة فى مصر كلها يا أمى ، وصاحبه من أكثر المحامين براعة .

ابتسمت فى حنان ، وهى تسألنى :

– من هو يا (عادل) ؟

قفز سؤالها بقلقى إلى ذروته ..

كانت هذه هى اللحظة التى أنتظرها وأخشاها ..

ترى هل تذكر اسم القاضى ، الذى أرسل أبى إلى المشنقة ؟ ..

هل يحتفظ ذهنها باسمه وصورته ، طوال كل هذه السنوات ، مثلما احتفظت أنا بهما ؟ ..

دارت هذه الأسئلة فى رأسى بسرعة البرق ، قبل أن أتمالك جأشى ، وأتصنّع الهدوء ، وأنا أقول :

– اسمه (حسن عبد الجليل) .

عقدت أمى حاجبيها لحظة ، كاد فيها قلبى يتوقف

عن النبض ، ثم عادت أساريرها تنبسط ، وهى تسألنى فى هدوء :

ـ أهو أفضل مكان يمكن أن تجده ؟

هتفت فى حماس ، وقلبى ينبض فى قوة :

ـ لا يوجد أفضل منه يا أماه .

ارتسمت على شفتيها ابتسامة حانية ، أعادت الدماء المتجمدة إلى عروقى ، قبل أن تقول فى هدوء :

ـ سيكون من حسن حظه أن تعمل فى مكتبه يا ولدى .

تدفقت فى عروقى سعادة لا توصف ، وأخذت ألهج بكلمات الشكر لأمى ، وأنا أغمر وجهها وكفيها فى امتنان ..

وبدأت عملى فى مكتب المستشار (حسن) ..

كانت الخبرة التى أحتاج إليها لافتتاح مكتب خاص للمحاماة هى عامان فقط ..

ولكننى عملت فى مكتب المستشار (حسن) أربع سنوات كاملة ..

عملت طوال هذه السنوات الأربع فى جد ونشاط ، دون أن أطالبه بشهادة الخبرة ، ودون أن يسألنى هو عن سر تجاهلى لها ..

لقد انتظرت طوال هذا الوقت ؛ لأن موعد تنفيذ خطتى لم يحن بعد ..

وانتظر هو لأننى كنت مثالا للمحامى الناجح ، الذى يتمنى أى محام قدير أن يضمه إلى مكتبه ..

وأصبح المستشار يولينى ثقته بلاحدود ، ويعاملنى بأبوة خالصة ..

وكان هذا جزءاً من نجاح خطتى ..

ولكننى لم ألتق بأسرته أبداً طوال هذه السنوات الأربع ..

ولا هو التقى بأمى ..

كانت علاقتنا ، على قوّتها ، علاقة عمل فقط ..

حتى كان ذلك اليوم ..

كنت أجلس فى مكتب المستشار ، منهمكاً فى دراسة ملف قضية جديدة ، حينما تسلل إلى أذنى صوت

موسيقى عذب ، يحمل كل رقة الدنيا ، ونعومتها ، ودفئها ..

صوت يقول فى هدوء محبب إلى النفس :

ـ صباح الخير ..

رفعت عينى إلى مصدر الصوت ، ثم لم ألبث أن ارتددت مصعوقاً ..

كانت صاعقة قوية ، ولكنها من نوع الصواعق اللطيفة ، التى تراود الإنسان فى أحلامه ، فى ليالى الربيع ، حينما يسود النسيم العليل ، وتتصاعد فى الهواء رائحة الورود والزهور اليانعة العطرة ..

كانت (هالة) ..

كانت تلك الصبية ، ذات الاثنى عشر ربيعاً ، التى رأيتها تلتصق بوالدتها الجميلة فى خوف ، منذ خمس سنوات ، قد نمت وترعرعت ، وصارت ملاكاً رائع الجمال ، شديد الرقة والفتنة ، وهى فى السابعة عشرة من عمرها ..

كانت أروع فتاة وقع عليها بصرى منذ طفولتى ..

كان وجهها رقيقاً فاتناً ، يستدير عند وجنتيها ، ثم ينساب فى نعومة ، ليستدق عند ذقنها الصغيرة الرقيقة ، وتتألق وسط بشرتها الوردية ، المشربة بالحمرة ، والتى ورثتها من والدها ، وعينان هما أبدع ما صنع الخالق (عز وجل) ..

عينان ذهبيتان ، واسعتان ، تحيط بهما رموش شقراء طويلة ، ويعلوهما حاجبان شقراوان جميلان ، وينسدل من بينهما أنف صغير رقيق ، يعلو فماً مستدقاً ، وشفتين صغيرتين جميلتين ، فى لون الورود الناضرة ..

أما شعرها ، فهو تحفة الخالق فى خلقه ..

شلال من الذهب ينسدل فى نعومة الحرير على كتفيها ، فيزيد وجهها تألقاً ، ويزداد به بهاء ..

كان مرأى هذا الملاك الطاهر وحده يكفى لأن أتراجع عن خطتى تماماً ..

ولكن هيهات ..

لم تكن عينى هى التى ترى ، وإنما كانت عين الشيطان ..

الشيطان الذى وجد فى أعماق تربة خصبة ، فقطنها ، وطاب له المقام فيها ..

وعاد ذلك الصوت الملائكى الرقيق ، يقول فى رقة ونعومة :

– معذرة .. لقد كنت أظن أبى هنا ..

وجدت نفسى أغمغم فى انبهار :

– أنت (هالة) .. أليس كذلك ؟

ازدادت بشرتها الوردية احمراراً ، وهى تقول فى رقة :

– بلى .. أأنت الأستاذ (عادل) ؟

أومأت برأسى إيجاباً ، وأنا أتطلع إليها فى انبهار عقد لسانى ، فخفضت عينيها وهى تقول فى رفق :

– إن والدى يتحدث عنك كثيراً ، ولكنها أول مرة نلتقى .

هتفت فى حماس لم أصطنعه :

– للأسف .

ارتسمت على شفتيها ابتسامة رقيقة ، وتضرَّج

وجهها بحمرة الخجل ، وهى تخفض عينيها مغمغمة فى ارتباك :

– هل سيتأخر والدى كثيراً ؟

أجبتها وأنا أنهض من مقعدى ، وأقودها إلى المقعد المقابل للمكتب فى رقة :

– سرعان ما يأتى .. يمكنك انتظاره .

خيل إلىّ أنها قد تردّدت لحظة ، ثم لم تلبث أن حسمت رأيها ، وجلست على المقعد الذى قدمته لها فى رقة زهرة صغيرة ، وخفضت عينيها إلى الأرض ، ران الصمت بيننا لحظات ، قبل أن أقول فى هدوء :

– لقد نضجت يا (هالة) ..

ابتسمت فى خجل ، وهى تغمغم :

– هل رأيتنى من قبل ؟

أومأت برأسى إيجاباً ، على الرغم من أنها لم تكن تنظر إلى ، وقلت فى خفوت :

– منذ خمس سنوات .. وكنت – آنذاك – مجرد صبية صغيرة .

رفعت إلى عينيها الفاتنتين فى مزيج من الفضول والحياء ، ثم قالت فى رقة :

ــ إننى أذكر ملامحك ، ولكننى لست أذكر متى التقينا يا أستاذ (عادل) .

اقتربت بوجهى من وجهها ، وأنا أقول هامساً :

ــ ربما فى عالم الأحلام .

لاحظت ارتجافتها ، وتصاعد الدماء إلى وجهها ، الذى صار أشبه بثمرة فراولة كبيرة ناضجة ، وهى تغمغم فى صوت شديد الخفوت :

ــ أين التقينا حقاً ؟

جذبتُ مقعداً وجلستُ أمامها ، ورحت أقص عليها تفاصيل لقائنا الأول ، حينما كانت صبية صغيرة تتشبث بثياب أمها فى خوف ، ثم أردفت فى رقة :

ــ لم أكن أتصور ــ حينذاك ــ أن تلك الصبية الصغيرة ستتحول إلى ملاك رائع الجمال فى خمس سنوات فحسب .

كان من الواضح أن إطرائى قد وجد صدى فى

نفسها ، وأنه قد أسعدها أيما سعادة ، فقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة خجلى ، تجمع ما بين السعادة والحياء ، وهى تتمتم فى خجل :

ــ البنات يتبدلن كثيراً ، فى هذه الفترة من العمر ..

كنت أنوى أن أتبادل معها حديثاً طويلاً ، يعاوننى على الوصول إلى الهدف ، الذى انتظرته لسنوات عديدة ، إلا أن والدها وصل فى هذه اللحظة ، وهتف فى مرح :

ــ (هالة) !! .. يا لها من مفاجأة ! .. منذ متى وأنت هنا ؟

أسرعت إلى والدها ، وقبلته فى مرح طفولى ، وهى تقول :

ــ منذ نصف ساعة فقط يا أبى ، ولقد التقيت بالأستاذ (عادل) ، وطلب منى انتظارك .

منحنى والدها نظرة امتنان ، ثم قال فى سعادة :

ــ إذن فقد تعارفتما ..

هتفت (هالة) فى رقة :

– هل تذكر يا أبى حادث السيارة ، الذى حدث لأمى ، فى أول أيام عملك فى كلية الحقوق ؟ .. لقد كانت سيارة الأستاذ (عادل) ، تلك التى اصطدمت بها أمى .

رفع والدها حاجبيه ، وهو يهتف فى دهشة :

– يا إلهى !! .. كم هو صغير هذا العالم !!

ثم التفت إلىّ ، وهو يقول بإعجاب وحنان :

– ولكن هذا لا يدهشنى ، فما فعلته حينذاك يتوافق مع حسن أخلاقك ونبلك يا (عادل) .

ارتسمت ابتسامة رائعة على شفتى (هالة) ، وهى تغمغم فى رقة :

– هذا صحيح يا أبى .

التفت إليها والدها فى دهشة ، ثم لم يلبث أن ابتسم فى حنان ، وهو يدير عينيه إلىّ ..

كان من الواضح أنه قد لاحظ ذلك التوافق العاطفى ، الذى حدث بين ابنته وبينى من لقائنا الأول .

وكان من الواضح أن ذلك لا يثير غضبه .. بل يبهجه ..

كان يحبنى حتى أنه لم يكن يبخل علىّ حتى بابنته الوحيدة ..

كان يرانى زوجاً صالحاً لها ، كشاب ناجح ، وسيم ، ثرى ، مهذب ..

وكان يثق فى حسن تهذيبى ، وفى أخلاقياتى ثقة عمياء ..

وتضرّج وجه (هالة) بحمرة الخجل ، فى حين قال والدها فى حنان :

– عجباً !! .. أليس من العجيب أننا لم ندعوك للعشاء مرة واحدة ، طوال هذه السنوات الخمس ، التى عملت فيها فى مكتبى يا (عادل) .

غمغمت فى لهجة مهذبة :

– إننى لم ألحظ ذلك يا سيدى ، فلقد كنت تغمرنى برعايتك حتى أننى ..

قاطعنى وهو يقول فى مرح :

ـ لا .. لا .. إننا ندين لك بدعوة إلى العشاء .. مقابل ما فعلته زوجتى بسيارتك على الأقل .

تمتمت فى اعتراض واه :

ـ الأمر لا يستحق يا سيدى و ..

قاطعنى فى حزم حنون :

ـ لا فائدة .. ستتناول العشاء على مائدتنا غداً .

ثم التفت إلى ابنته مستطرداً :

ـ أليس كذلك يا (هالة) ؟

تضرَّج وجهها بحمرة الخجل مرة أخرى ، وهى تغمغم فى سعادة :

ـ بلى يا أبى .. بلى .

ثم استطردت فى سرعة ، وكأنما تخشى أن تفضحها مشاعرها ، لو أنها بقيت أكثر من ذلك :

ـ أعتقد أنه علىَّ أن أنصرف الآن .. حتى أنقل الخبر لأمى على الأقل .

ابتسم والدها فى حنان ، وكأنما فهم مقصدها ، وقال فى هدوء :

ـ لا بأس يا (هالة) .. لا بأس .

وصافحتها وأنا أتطلَّع إلى عينيها الساحرتين ، مغمغماً :

ـ يسعدنى هذا اللقاء جدًّا يا آنسة (هالة) .

ارتجفت أصابعها الرقيقة فى راحتى ، وتضرَّج وجهها بحمرة قانية ، وتراقصت على شفتيها ابتسامة خجلى فرحة ، علمت منها أننى قد فزت بأول الطريق إلى قلبها ..

وربحت الجولة الثانية فى معركة انتقامى ..

* * *



٨ - وحفق قلب الحجر ..

لن تُمْحَى من ذاكرتى تفاصيل تلك الليلة ، التى تناولت فيها العشاء على مائدة أسرة المستشار (حسن) أبداً ..

لقد استقبلنى الرجل هاشًا باشًا ، ووجهه يتألق بالترحاب والمودة والحنان ، أما زوجته فقد بدت رائعة ، وهى تستقبلنى بابتسامتها الرقيقة ، وتصافحنى فى مودة واضحة ، ووجهها يحمل نفس الجمال الفاتن ، وإن بدأت بعض التجاعيد الصغيرة تشق طريقها فى بشرتها ، لتعلن عن تقدمها فى العمر ..

وقادتنى الأم إلى حجرة الجلوس ، وهى تكرر شكرها فى حماس ، على موقفى معها منذ خمس سنوات ، حينما حطمت مصباح سيارتى الجديدة - آنذاك - واندفع والد (هالة) يؤكد مرة ثانية أن هذا الموقف لا يتعارض مع نبل أخلاقى ، وكرم محتدى ، وأنا أستمع إليهما فى شرود ، وأبحث بعينى عن (هالة) فى لهفة ، حتى لم

أعد أحتمل ، فقاطعت والدة (هالة) ، وأنا أسألها فى لهفة لم أحاول إخفاءها :

- أين (هالة) ؟

تبادلت الأم نظرة حانية مع الأب ، وابتسمت ، وكأنها تؤكد له أن سؤالى هذا ، بكل اللهفة التى يحملها ، يثبت صحة رأيها فى حديث أفترض حدوثه بينهما قبل وصولى ، ثم أجابتنى فى هدوء :

- إنها فى حجرتها ، وستأتى بعد لحظات .

وأطلق الأب ضحكة قصيرة ، قبل أن يقول :

- لقد حصلت اليوم على إجازة خاصة من الاستذكار ، فهى فى الثانوية العامة كما تعلم .

لم أكن أعلم ذلك بالطبع ، ولكننى فهمت أنها مناورة منه ليرسل إلىّ هذه المعلومة بالذات ، وتظاهرت بعدم فهم مغزى عبارته ، كما تقتضى اللياقة ، وفتحت فمى لأسأله عن أحوال دراستها واستذكارها ، إلاَّ أن عينىّ وفمى انطلقن يرسمن ثلاث دوائر وسط وجهى النحيل ، حينما وقعت عيناى على (هالة) ..

لقد كانت فى تلك الليلة قنبلة ..

قنبلة تتفجَّر بالجمال والرقة والجاذبية والعذوبة ..

كان وجهها يتألق بجمال ملائكى خارق للمألوف ، وعيناها الذهبيتان تلمعان بضياء ساحر ، وشلال الذهب الذى ينسدل من قمة رأسها إلى كتفيها يعكس الأضواء فى روعة ، وقد تركته طليقاً من الجانب الأيمن فى حين ألقته خلف رأسها من الجانب الأيسر ، لتبرز ذلك القرط الماسى الرقيق ، الذى يتدلى من أذنها اليسرى ، وتركت خصلة ذهبية تداعب جبهتها فى نعومة، فى حين صبغت شفتيها بطلاء وردىّ أخاذ ، يتناسب كثيراً مع لون بشرتها المشرب بالحمرة ، وتألقت فوقهما ابتسامة عذبة خجلى ، ويتحلى جيدها بعقد ماسى أنيق ، زاده عنقها جمالا ولمعاناً ، وارتدت ثوباً من الحرير المخملىّ الوردىّ ، جعلها أشبه بملائكة الزهور ..

واقتربت (هالة) لتصافحنى ، وهى تقول فى رقة تذيب القلوب :

ـ مرحباً بك فى منزلنا يا أستاذ (عادل) .

لست أدرى بم أجبتها وأنا أصافحها ، ولكن مما لا شك فيه أن إجابتى لم تخرج عن كونها مجرد همهمات غير مفهومة ، وأنا أتطلّع إليها مبهوراً ، مأخوذاً ..

ونسيت كل شىء منذ تلك اللحظة .. إلاّ (هالة) ..

كنت أتطلّع إليها طوال الوقت ، دون أن أنجح فى خفض عينى عن وجهها وجمالها ..

حتى عندما نهضنا لتناول العشاء ، لم أشعر بسواها..

لست أدرى شيئاً عن رد فعل والديها ، وأنا أجلس إلى جوارها على مائدة العشاء ، ولا أتحدث إلاّ معها ..

لست أدرى حتى ما إذا كانا قد صمتا طوال الوقت، أو أنهما تبادلا بعض الحديث ..

لم أشعر فى الواقع إلاّ بـ (هالة) ..

(هالة) فقط ..

وبعد انتهائنا من تناول الطعام ، عدنا إلى حجرة الجلوس ، وذهبت والدة (هالة) لتعد أكواب الشاى ،

وذهب والدها ليؤدى فريضة الصلاة ، وتركانا وحدنا ..

لست أدرى ما إذا كانا قد تعمَّدا ذلك ، أم أنه جاء بمحض الصدفة ..

المهم أننى وجدت نفسى وحيداً مع (هالة) ..

وران الصمت علينا بضع لحظات ، وهى تتطلّع إلى الأرض فى حياء ، حتى وجدت أنه من الضرورىّ أن نتبادل بعض الحديث ..

أى حديث ..

فسألتها فى هدوء :

– فى أى أقسام الثانوية العامة تدرسين ؟

– القسم الأدبى ..

– ولماذا القسم الأدبى بالذات ؟

– حتى يمكننى الالتحاق بكلية الحقوق .

– هل ترغبين فى العمل بالمحاماة ؟

– إننى أعشقها .

– ألأن والدك يعمل بها ؟

– ربمـــا .

– أنا أيضاً أعشق العمل بالمحاماة .

– أعلم ذلك ، لقد أخبرنى والدى برفضك وظيفة هيئة التدريس ، من أجل العمل بالمحاماة .

– هل أخبرك والدك كل شىء عنى ؟

– تقريباً .

– وما رأيك ؟

– فى ماذا ؟

– فيما أخبرك به ؟

تضرَّج وجهها بحمرة الخجل عند هذه اللحظـــة ، وصمتت طويلا ، وقبل أن تغمغم فى رقة وحياء :

– إننى أتفق مع أبى فى كل ما يراه .

– وما رأى أبيك ؟

– إنه يقول إنك شاب ممتاز ، ونشيط ، وسيكون لك مستقبل رائع فى عالم المحاماة .

تراجعت فى مقعدى ، وأنا أتأملها فى إمعان ، قبل أن أقول فى هدوء :

– هل تعلمين يا (هالة) ؟ .. لقد تساءلت طويلا

عن سر إحجامى عن افتتاح مكتبى الخاص للمحاماة حتى الآن ، على الرغم من أنه لا تنقصنى الأموال أو الخبرة ، ولكننى عرفت الآن فقط لِمَ لمْ أفعل .

سألتنى فى شغف :

– لِمَ ؟

تأملت وجهها لحظة أخرى ، قبل أن أقول :

– لقد كان القدر يدخر لنا هذا اللقاء .

لم أكن أحتاج إلى جواب أو تعليق منها ، لأعرف وقع كلماتى فى قلبها ..

كان يكفينى ذلك الاحمرار الذى تصاعد إلى وجهها ، وتلك الارتجافة التى سرت فى جسدها ، وابتسامة السعادة والخجل ، التى زينت شفتيها ، لأعلم أننى قد نجحت فى التسلل إلى قلبها ..

ولقد أسعدنى ذلك كثيراً ..

ولم نتبادل أنا و (هالة) مزيداً من الحديث بعد ذلك ، فقد عاد والداها ليكونا معنا فى حجرة الجلوس ، وكأنما وجدا أن الفترة التى تركانا وحدنا فيها كانت

تكفى لتعارفنا ، واستمرت السهرة هادئة ، ناعمة ، تمتلئ بالمرح والحنان ، حتى حان موعد الانصراف ..

وصافحت المستشار وأنا أشكره على السهرة اللطيفة ، وصافحت زوجته وأنا أثنى على براعتها فى إعداد الطعام ، كما ينبغى أن يفعل أى زائر مهذب ، ثم صافحت (هالة) ..

من المستحيل أن يوصف ما حدث بيننا بأنه مجرد مصافحة ..

فالمصافحة العادية لا يسرى فيها ذلك التيار الدافئ العذب ، الذى ترتجف له الأصابع ، ويتصاعد ارتجافها إلى العيون والشفاه ..

والمصافحة العادية لا تنطلق منها تلك القشعريرة ، التى تنبعث من الأكف المتصافحة ، وتسرى منها إلى الجسد كله ، فيخفق لها القلب فى قوة وسرعة ..

لا يا سيدى .. إنها لم تكن مصافحة عادية ..

لقد كانت حديثاً ..

حديثاً طويلا عميقاً بين قلبين ، لم يستغرق إلا لحظة واحدة ..

كان اعترافاً لا يقبل الشك ..

اعترافاً بالحب ..

وغادرت منزل (هالة) ، وأنا أكاد أطير فرحاً ..

وقدت سيارتى فى طريق العودة ، وأنا لا أشعر بمرور الوقت ..

وفجأة تنبهت إلى ملاحظة شديدة الغرابة ..

لقد كان قلبى يخفق على نحو عجيب ..

لم يكن ذلك الخفقان المألوف فى القلب البشرى ، بل كان يختلف ..

إنه لم يعد ذلك القلب الحجرى الذى كنت أحرص على الاحتفاظ به ..

وأوقفت سيارتى إلى جانب الطريق ، وأنا أشعر بالذعر لذلك الكشف الجديد ..

لقد خالف قلبى خطة الانتقام التى أحيا من أجلها ..

لقد خفق القلب الحجرى بحب (هالة) ..

* * *

٩ ـ وجه من الماضى ..

لا يمكننى أن أصف ذلك العذاب الذى عانيته ، منذ اعترف قلبى بأنه قد وقع فى حب (هالة) حقًّا ..

ومن العجيب أن هذا كان يبعث فى نفسى شعوراً بالعذاب ..

هل تعلم يا سيدى أن قصة حبى لـ (هالة) كان من الممكن أن تكون أعظم قصة حب فى التاريخ ؟ ..

كان من الممكن أن تمضى فى هدوء وسعادة ، بلا مشكلات أو عقبات ..

لولا ذلك النبت الأسود الذى ذرعه الشيطان فى قلبى ..

نبت الانتقام ..

كانت مشاعرى نهباً لنزاعات قوية عنيفة ، تعتصر أعماقى اعتصاراً ..

كنت موزَّعاً بين تلك العاطفة السامية ، التى خفق لها قلبى بحب (هالة) ، وتلك الرغبة السوداء ، التى عشت حياتى كلها من أجلها ..

كان الأمر يبدو سهلا ميسوراً ، لو أننى لم أقع فى حب (هالة) ..

ولا تصدق أبداً يا سيدى أن الحب يمحو من النفس كل المشاعر السيئة ..

لا تصدق ذلك أبداً ، وإلا كان عليك أن تحكم ببراءة كل من يقتل من أجل الغيرة ، أو الخيانة ، أو الحب ..

إن الحب كغيره من المشاعر ، لا يكفى أن يحتل إلا جزءاً من أعماق الإنسان ، وليس أعماقه كلها ..

قد يحتل جزءاً كبيراً ، ولكنه لا يحتل الكيان كله أبداً ..

وهذه حقيقة ..

حقيقة لا شك فيها ، وإلاّ ما أحب ديكتاتور مثل (أدولف هتلر) (إيفا براون) ، وإلاّ ما رأينا وحشاً ضارياً يحنو على صغاره ، ويتبادل الغزل مع وليفته ..

الحب ولا شك عاطفة راقية سامية ، ولكنه ليس ممحاة تمحو ما عداه من المشاعر ..

ولم يكن من السهل علىّ أن أتخلى عن انتقام عشت من أجله ستة عشر عاماً ، من أجل الحب ..

وأىّ حب ؟! .

حب ابنة الرجل الذى قتل أبى ، وأرسله إلى المشنقة مكللا بالعار ..

كان خياراً قاسياً ، عسيراً يا سيدى ..

وشاء القدر .. أو شاء الشيطان أن أختار الانتقام ، حينما بعث أمامى وجهاً من الماضى ..

كنت أجلس فى حجرتى الخاصة ، فى مكتب المستشار (حسن) ، حينما جاء وكيل المكتب ليخبرنى أن عميلا يرغب فى مقابلتى ، نظراً لعدم وجود المستشار فى مكتبه ..

كنت أرغب فى رفض تلك المقابلة ، نظراً لسوء حالتى النفسية ، إلا أننى لم أشأ أن أخذل العميل ، فطلبت من وكيل المكتب أن يدخله ، ولم تمض لحظات حتى دلف إلى حجرتى رجل وقور ، فى منتصف

الأربعينات من عمره ، وألقى علىّ التحية فى تهالك ، ثم جلس أمامى وعيناه تحملان حزناً شديد العمق ..

وبدت لى ملامح الرجـــل مألوفة ، وإن لم أذكر متى وأين التقيت به من قبل ..

وشرح لى قضيته فى حزن واقتضاب ..

لقد كان له ابن وحيد فى شرخ الشباب ، لم يفلح أسلوب والده فى تقويمه ، ففشل فى دراسته ، وتعرّف بعض أصـدقاء الســوء ، وانغمس فى رذيلة القمار ، حتى كان يوم ربح فيه مبلغاً كبيراً من رجل فى عمر والده ، وحينما استعطفه الرجل ليرد له بعض ما ربحه ، عامله فى قسـوة وخشـونة ، وسخر منـه أمام رفاقه ، فترصده الرجل أمام منزله ، عند عودته بعد منتصف الليل ، وطعنه بخنجر حاد فى قلبه ، فقضى عليه لساعته وحينما ألقى رجال الشرطة القبض عليه ، جاء بعشرات الشهود ، الذين أكدوا وجوده بعيداً عن مسرح الجريمة وقت ارتكابها ..

ولم يكن ذلك العميل ، الذى انخرط فى البكاء وهو يروى قصته ، يطالب بأكثر من العدالة ..

كان يطالبنى بمحاولة إثبات التهمة على القاتل ، حتى ينال جزاءه العادل ، ولا يضيع دم ابنه هباءً ..

وكانت القضية تبدو صعبة عسيرة ، غير مضمونة وكدت أرفضها بالفعل ، لولا أن ذكر لى العميل اسمه ومنصبه فى نهاية الحديث ..

لم يكن اسمه هو الذى يعنينى ، ولكن منصبه ..

لقد كان ضابطاً فى الشرطة ، برتبة عميد ..

وهنا تذكرت متى وأين رأيت ذلك العميل من قبل ؟ ..

واسترجع ذهنى فى لحظة واحدة وقائع محاكمة أبى وصدور حكم الإعدام ضده ، واندفاعى لألقى نفسى بين ذراعيه ، ومحاولة جنود الشرطة منعى ..

وتذكرت ذلك الضابط الحنون ، الذى زجرهم ، وربَّت على كتفى فى حنان ، وسمح لى بمعانقة والدى ..

تذكرت لمسته الحنون فى ذلك الوقت الكئيب العصيب ..

لقد كان هو نفسه ذلك الرجل الذى يجلس أمامى .

وامتلأت نفسى بالحماس والقوة ، والإصرار على رد الجميل للرجل الذى يجلس أمامى ، وإدانة قاتل ابنه مهما كلفنى ذلك ، ومهما خاطرت بمستقبلى وسمعتى .

وفوجئ الرجل حينما وجدنى أقبل القضية فى حماس زائد ، وأشد على يده فى حرارة ، وأنا أؤكد له أننى سأبذل أقصى جهدى لكسب هذه القضية ..

واغرورقت عينا الرجل بدموع الشكر والامتنان، وهو يصافحنى فى أمل ، وأسرعت أنا إلى حجرة المستشار (حسن) ، الذى عاد من المحكمة توًّا ، وشرحت له الأمر كله ، وأخبرته بعزمى تولى هذه القضية ، فاستمع إلىّ فى هدوء ، ثم قال :

ــ إن الأمر ليس بالسهولة التى تتصوَّرها ، أو يُصوِّرها لك حماسك يا (عادل) ، فقد يكون من السهل تبرئة قاتل، ولكنه من العسير إدانة مجرم دون أدلة.

قلت فى حماس :

ــ أعلم أنها ليست قضية سهلة يا سيدى ، ولكننى مصرّ على القيام بها .

ــ إنك تغامر بمستقبلك .

ــ أنا أعشق المغامرة .

ــ وبسمعتك المهنية أيضاً .

ــ لست أخشى ذلك .

ــ وما سرّ حماسك الزائد فى هذه القضية بالذات؟

توقفت لحظة ؛ لأتدبر جواباً مناسباً ، لا يفضح ما أخفيته حتى الآن ، ثم تراجعت فى مقعدى ، وأنا أقول فى هدوء :

ــ سأخبرك بسر إصرارى يا سيدى ، وحماسى لهذه القضية بالذات .

اعتدل فى مقعده ، وظهر فى انعقاد حاجبيه أن كلماتى قد أثارت اهتمامه وفضوله ، فاستطردت بنفس الهدوء :

ــ إننى مدين لهذا الرجل .

رفع حاجبيه فى دهشة ، وبدا من انفراج شفتيه أنه يود سؤالى عما يعنيه ذاك ، فأسرعت أردف :

– إنه لا يدرى ذلك ، ولا يذكره ، وأنا لا أحب أن أعلن طبيعة هذا الدين أو نوعه .. كل ما يمكننى قوله هو أننى مدين له ، وأن هذا الدين يجبرنى على معاونته ، دون أن يعلم هو نفسه بالسبب .

ران الصمت علينا لحظات ، تفحصنى خلالها المستشار بعينيه المتفرستين ، قبل أن يسألنى فى هدوء ، وبابتسامة حنون :

– أهذا الدين يستحق مخاطرتك ؟

قلت فى مزيج من الحزم والهدوء :

– نعم يا سيدى .

تراجع ليستند إلى ظهر مقعده ، ثم أجابنى فى هدوء :

– امض فى طريقك إذن يا ولدى ، وابذل أقصى ما يمكنك من جهد لتربح قضيتك .

شكرته فى حرارة ، ونهضت لأنصرف ، إلاّ أنه استوقفنى قائلا :

– أريد منك أن تنتبه إلى نقطة هامة يا (عادل) .. لن تكون هذه القضية مجرد سداد لدين قديم ، بل ستكون أخطر منعطف فى حياتك كلها ، فلو أنك ربحتها ، فسيتألق اسمك فى عالم المحاماة .. أما لو فشلت ..

لم يتم عبارته ، ولكننى فهمت ما يعنيه ، وأجبت فى هدوء :

– اطمئن يا سيدى .. سأبذل أقصى جهدى كيلا أفشل .

وبدأت فى دراسة ملف القضية ، وانهمكت فيه حتى النخاع ، حتى أننى نسيت كل ما عداه ..

نسيت انتقامى ..

نسيت أمى ..

نسيت حتى (هالة) ..

وعكفت طيلة ثلاث ليال كاملة على دراسة التحقيقات ، وأقوال شهود النفى والإثبات ..

درست كل عبارة ..

كل كلمة ..

كل حرف ..

حتى حانت لحظة المواجهة ..

ولن أضيع الوقت فى شرح تفاصيل المحاكمة ، أو الدخول فى تفصيلات قانونية معقدة ، فكلانا يدرى كيف تتم مثل تلك المحاكمات يا سيادة وكيل النيابة .. المهم أننى استطعت محاصرة شهود النفى ، واعتصارهم بأسئلتى اعتصاراً ، وضيقت عليهم الخناق بمناورات بارعة، شهد لها الجميع بالذكاء والمهارة، حتى أظهرت تخبطهم ، وزيف شهاداتهم وأقوالهم ، ولم يلبث أحدهم أن انهار تحت وطأة أسئلتى الحاذقة ، واعترف بكل شىء ..

وأدان القاتل ..

ولا يمكنك أن تتصور مقدار فخرى وسعادتى ، حينما نطق القاضى بحكم الإعدام ..

ولكن هذا الفخر ، وتلك السعادة لم يستغرقا أكثر من لحظة واحدة ..

فلم يكد القاضى يصدر حكمه ، حتى دوت صرخة جزع فى القاعة ، والتفتّ إلى مصدرها فى ذعر ، ثم لم يلبث ذعرى أن تحول إلى رعب هائل ، ملأ جوانب نفسى ، وغاص فى ثنايا قلبى كخنجر حاد مسموم ..

لقد رأيت فى منتصف القاعة سيدة ، فى منتصف الثلاثينيات من العمر ، شاحبة الوجه ، ملتاعة ، تشهق فى ألم ، ثم تسقط فاقدة الوعى ، وإلى جوارها طفل فى العاشرة ، يتشبث بها فى ذعر ، وهو يحدّق فى وجه القاضى بمزيج من الحقد والكراهية والذهول ..

كنت وكأننى أرى نفس المشهد الذى كنت أنا وأمى بطليه منذ ستة عشر عاماً ..

وكانت الأدوار قد تبدلت فى هذه المرة ..

لم أعد الضحية .. بل صرت القاتل ..

ولو أن عقلى ومشاعرى كانا يتخذان الطريق الصحيح فى التفكير ، فى هذه اللحظة ، لكان هذا المشهد

خليقاً بأن يفجر كل الشفقة والرحمة فى أعماق ، وينزع من نفسى تماماً كل رغبة فى الانتقام ..

ولكن هيهات ..

لقد تملكنى الشيطان ، حتى لم أعد بشراً يحمل قلباً نابضاً ، بل صرت إنساناً آليًّا ، تصور له رغبته فى الانتقام كل الأمور ، على النحو الذى يريد رؤيته فحسب ..

وبدلا من أن يثير هذا المشهد شفقتى وعطفى ، فجَّر فى أعماق مزيداً من الكراهية ، والرغبة فى مواصلة طريق الانتقام من قاتل أبى ..

كنت أرى كل الأمور معكوسة ، مقلوبة ؛ لأن هذا ما كنت أرغب فى رؤيته ..

وعدت إلى مكتب المستشار منتصراً ظافراً ، وقد بدا لى طريق الانتقام أقرب مما كنت أتصوَّر وأنتظر ، واستقبلنى هو فى سعادة جمة ، وشد على يدى فى حرارة وحنان ، وهو يهنئنى بربح القضية ، وهتف فى فخر :

— كنت أعلم أنك ستفعل ذلك .. كنت أعلم أنك ستنتصر .

استقبلت تهنئته فى هدوء ، وقد بدت لى تلك اللحظة مناسبة تماماً ، للقفز إلى الخطوة التالية من خطتى ، فأجبته فى هدوء :

— هل ترى أننى جدير بالعمل فى سلك المحاماة يا سيدى ؟

أجابنى فى حماس :

— إننى أرى ذلك منذ زمن يا ولدى .

ازدردت لعابى ، وأنا أقول :

— هذا يشجعنى على أن أتقدم لك بمطلب هام .

سألنى فى اهتمام :

— سل ما بدا لك يا ولدى .

قلت فى هدوء :

— إننى أطلب يد الآنسة (هالة) .

ساد الصمت لحظة ، احتبسَتْ خلالها أنفاسى ،

وخيل إلىّ أن توقعاتى السابقة لم تكن صحيحة ، إلا أنه لم يلبث أن ابتسم فى سعادة وحنان ، وهو يقول :

– لن أجد لـ (هالة) من هو أفضل منك يا ولدى.

شهقت فى سعادة ، وأنا أهتف فى فرح :

– إذن فأنت توافق يا سيدى .

ابتسم ، وهو يقول فى حنان غامر :

– نعم يا ولدى ، ولكن ..

اختلج قلبى بين ضلوعى ، وأنا أقول فى قلق :

– ولكن ماذا يا سيدى ؟

تردد لحظة ، قبل أن يقول فى حنان :

– أنت تعلم أن (هالة) فى الثانوية العامة ، وأمامها ثلاثة شهور لإنهاء امتحاناتها ، وإذا ما قدّر لها الله (سبحانه وتعالى) أن تلتحق بكلية الحقوق ، كما تتمنى ، فسيعنى هذا أنها ستحتاج إلى أربع سنوات أخرى .

غمغمت فى قلق :

– وماذا يعنى ذلك يا سيدى ؟

تنهّد ، وقال فى هدوء :

– اطمئن يا ولدى .. كل ما أطلبه هو أن نؤجل إعلان الخطبة ، حتى تنتهى امتحانات (هالة) ، على ألا يتم الزفاف إلا بعد انتهاء دراستها فى كلية الحقوق – بإذن الله – فالزواج والدراسة لا يتفقان .

كان هذا يعنى أن أنتظر أربع سنوات أخرى ، قبل أن أنفذ انتقامى ، ولكننى لم أهتم ..

كنت قد اعتدت الصبر والانتظار ..

وأجبته بابتسامة هادئة :

– أوافق يا سيدى .. ما دام هذا لصالح (هالة) .

تهللت أساريره ، وهو يصافحنى فى حرارة ، قائلا :

– كنت أعلم أنك ستوافق .. مبارك يا ولدى ..

وصافحته وأنا أرتجف من فرط السعادة ..

سعادة شيطانية ؛ لأننى ربحت هذه الجولة أيضاً ، فى طريق الانتقام .

* * *

١٠ ـ سنوات الحب ..

عُدتُ إلى منزلى فى ذلك اليوم ، وأنا أكاد أُحلق فى السماء من فرط سعادتى ..

لم أدرك لحظتها سر هذه السعادة الجياشة ..

أهو ارتباطى بـ (هالة) ، أم نجاح خطتى الانتقامية ؟ ..

أهى سعادة الحب ، أم شهوة الشر ؟ ..

لم أدرك ، ولم أحاول أن أدرك ..

لقد عدت إلى منزلى ، واستقبلتنى أمى بابتسامتها العذبة الحنون ، وانحنيت أقبّل كفها ، وأنا أقول فى فرح :

ـ لقد ربحت قضيتى يا أمى .

كنت أتوقع منها أن تحتضننى فى سعادة ، وتنهال على وجهى بالقبلات ، وعلى مسامعى بالدعاء ، ولكنها اكتفت بابتسامة هادئة ، خيل إلىّ أنها تحمل حزناً خفيًّا وهى تغمغم فى خفوت :

ـ مبارك يا ولدى .

احتوانا الصمت لحظة ، وأنا أفكر فى سر فتورها ، ثم لم ألبث أن ألقيت تساؤلى جانباً ، وابتسمت وأنا أقول :

ـ ما رأيك أن أتزوج يا أماه ؟

تهللت أساريرها فى سعادة حقيقية هذه المرة ، وهى تهتف :

ـ إنه يوم المنى يا ولدى .. سأبحث لك عن أجمل عروس فى مصر كلها و ..

قاطعتها فى هدوء :

ـ لقد عثرت عليها يا أمى .. عثرت على أجمل وأرق عروس فى العالم .

رمقتنى بنظرة حانية ، واغرورقت عيناها بدموع الفرح ، وهى تتحسس وجهى بأناملها فى حنان ، وتسألنى فى شغف :

ـ من هى يا ولدى ؟.. هل يمكننى أن أراها ؟

قلت فى فرح :

- إنها ابنة المستشار (حسن) يا أماه ، صاحب المكتب الذى أعمل فيه .

اختفى الفرح من وجه أمى لحظة، وتجمدت الدموع فى عينيها ، ثم استدارت تلقى نظرة طويلة على صورة أبى ، قبل أن تتهلل أساريرها مرة أخرى ، وتسألنى فى حنان :

- أهى جميلة ؟

هتفت فى حماس :

- بل رائعة الجمال يا أمى .. إنها فاتنة ، تذوب رقة وعذوبة .

ارتفع حاجبا أمى فى حب وحنان ، وهى تسألنى :

- هل تحبها ؟

وشعرت بسؤالها يشق عقلى وقلبى إلى نصفين ..

هل أحبها حقًّا ؟ ..

هتف قلبى بالإيجاب ، وغمغم عقلى بالنفى ، ولكنّ لسانى اختار جواباً وسطاً ، وأنا أقول :

- إنها عروس رائعة يا أمى .

ابتسمت أمى فى حنان ، وانحنت تقبّل وجهى ، وتغمره بدموعها ، وهى تقول :

- هنيئاً لك عروسك يا ولدى ، وهنيئاً لها بك .

ثم اعتدلت ، وهى تسألنى فى اهتمام :

- هل تحدثت مع والدها ؟

أجبتها فى حماس :

- نعم يا أماه ، ولقد وافق ، ولكننا سننتظر انتهاءها من امتحانات الثانوية العامة ، ثم نعلن الخطبة .

عادت تقبّلنى وهى تقول فى فرح :

- إننى أتمنى لكما كل السعادة يا ولدى .

لم تكن أمى المسكينة تدرك أن هدفى من الزواج بـ (هالة) لم يكن هو السعادة ..

بل كان الشقاء ..

الشقاء الذى اخترته لنفسى كالأعمى ، الذى لا يرى نور الحب ..

لن أتهم القدر ، فلقد كان هذا قرارى لا قراره .

وربما كان قرارى هو القدر ..

لست أدرى ..

المهم أن الأمور قد سارت على خير ما يرام ..

انتهت (هالة) من امتحانات الثانوية العامة ، وأخبرها والدها برغبتى فى التقدم لخطبتها ..

لم أكن هناك بالطبع حينما أخبرها ، ولكننى أستطيع أن أتصور رد فعلها ..

لا شك أنها قد ارتبكت وتلعثمت ، واصطبغ وجهها بدماء الخجل ، وهى تخفضه لتخفى ابتسامتها ، وخجلها ، وهى تغمغم فى حياء :

— كما ترى يا أبى .

لا شك أنها قد فعلت ذلك ، وأنها قد وافقت ، فقد دعانا المستشار (حسن) ، أنا وأمى ، لزيارة أسرته . وذهبنا ..

ذهبنا أنا وأمى لزيارة أسرة (هالة) ، واستقبلنا المستشار (حسن) فى ترحاب وبشر ، واستقبلتنا زوجته فى حرارة ومودة ، واتصل الحديث بينها وبين أمى فى

ألفة وسرعة ، فى حين انهمكت أنا والمستشار فى حديث قانونى ، حتى جاءت (هالة) ..

ولقد علمت منذ اللحظة الأولى أن (هالة) قد وقعت فى قلب أمى موقعاً حسناً ، فقد رأيت نظرة السعادة والحنان ، التى ملأت عينى أمى ، حينما وقع بصرها على (هالة) ، التى بدت فى ذلك اليوم أيضاً رائعة الجمال ..

كانت قد تركت شعرها الأشقر الذهبى ينسدل ناعماً على كتفيها ، دون أن تقيده بتصفيفة خاصة ، واكتفت فى زينتها بطلاء شفاه وردىّ هادئ ،وارتدت ثوباً أزرق اللون ، يضيق عند خصرها النحيل ، ثم يتسع من أسفله ، كأردية أميرات العصور الوسطى ..

وأخذتها أمى بين ذراعيها ، وقبّلتها فى حنان وسعادة ، ثم أجلستها إلى جوارها ، والتفتت إلى أبيها تقول :

— ما أجملها من عروس ! ! سيكون من دواعى فخرنا أن تصبح زوجة لابنى ،

اتسعت ابتسامة والدة (هالة) فى حنان ، وخفضت هى عينيها فى خجل ، فى حين غمغم والدها فى هدوء :

— وسيكون من دواعى فخرنا أن يصبح (عادل) زوجها .

ومن هذا المنطلق ، بدأت والدتى حديثها عن زواجنا ، أنا و(هالة) ، ولقد بدأت — أول ما بدأت — بتأكيد أنها ستقدر (هالة) حق قدرها فى المهر والشبكة ، وأنها ستبتاع لى شقة فاخرة ، فى أرقى أحياء القاهرة ، وأنها ستعتبر (هالة) كابنتها ، وقال والد (هالة) إن التفاصيل المادية لا تقلقه ، وأنه يكفيه أننى شاب مهذب وقور ، ولم يلبث موعد الخطبة أن تحدد ، وانطلقت زغرودة الفرح ..

وجاء موعد الخطبة ، وتألّقت (هالة) بجمالها الأخّاذ ، وهى ترتدى ثوباً ذهبيًّا ، يتناسب مع لون عينيها وشعرها ، فى حين خبا تألق ذلك التاج الذهبى الذى زينت به شعرها فى رقة وأناقة ، وسط بريق نهر الذهب الطبيعى فوق رأسها ..

باختصار .. لقد بدت أجمل من رأيت فى حياتى كلها ..

وكان حفل الخطبة رقيقاً ، جميلا ، تتخلله السعادة والمرح ، حتى أننى نسيت كل مشاعرى السوداء الدفينة ، وانغمست فى السعادة التى تخيم على الجميع ، حتى انتهى حفل الخطبة ، واستأذنت والد (هالة) فى أن نخرج معاً لقضاء سهرة لطيفة ، فسمح لنا ، بعد أن منح كلاًّ منّا قبلة حانية ، وشيّعنا بنظرة تفيض حبًّا وعطفاً ..

ولأول مرة منذ معرفتى بـ (هالة) ، وجدت نفسى وحيداً معها ، فى نزهة شاعرية ..

وانطلقنا بسيارتى ، دون أن نتبادل كلمة واحدة ، حتى وصلنا إلى فندق أنيق ، يطل على النيل مباشرة ، وانتقينا مائدة ملاصقة للنيل ، وجلسنا صامتين لحظة ، ثم ابتسمت أنا ، وقلت فى حنان :

— هذا أسعد أيام حياتى يا (هالة) .

خفضت عينيها ، وهى تقول فى حياء :

- وأنا أيضاً يا (عادل) .

تسللت أصابعى فوق المائدة ، لتلتقط كفها الرقيقة وتحتضنها راحتىّ فى حب ، وأنا أغمغم :

- هل تسعدك خطبتنا حقًّا يا (هالة) ؟

ارتجفت كفها فى راحتى ، وهى تغمغم فى خجل :

- بالطبع يا (عادل) .. لماذا تتصور أننى وافقت إذن ؟

ثم أردفت فى مرح :

- لقد منحتنى هدية خطبة رائعة ، فهل تسمح لى بإهدائك هدية متواضعة ؟

سألتها فى شغف :

- بالطبع .. ما هى ؟

سحبت كفها من راحتى فى رقة ، والتقطت حقيبتها الذهبية الصغيرة ، وتناولت منها تمثالا صغيراً ، وضعته أمامى ، وهى تقول فى خجل :

- إنه لا يساوى كثيراً ، ولكننى رأيته مناسباً .

التقطت التمثال الصغير ، وتطلعت إليه فى اهتمام ..

كان تمثالا من المرمر الأبيض ، يمثل (كيوبيد) ، إله الحب عند الرومان القدماء ، ابن (أفروديت) إلـهة الحكمة ، و (مارس) إلـه الحرب فى الأساطير القديمة ، وهو عبارة عن طفل صغير ، جميل الوجه ، مجعد الشعر له جناحان صغيران كعصفور رقيق ، ويحمل خلف ظهره جعبة تمتلئ بأسهم الحب ، ذات الرءوس الشبيهة بالقلوب ، ويحمل فى يده قوس الأمل ، وهو يصوب به واحداً من أسهمه إلى قلوب المحبين ، وكان التمثال يرتكز على قاعدة وردية جميلة ، يشبه لونها الرقيق لون شفتى (هالة) ، فرفعت عينى إليهـا ، وابتسمت فى حنان ، وأنا أقول :

- لقد أصابنى سهمه بالفعل .

ابتسمت فى خجل ، وهى تقول فى رقة :

- المهم ألا تنزعه من قلبك أبداً ..

قلت فى حنان :

- سيبقى سهم (كيوبيـد) فى قلبى إلى الأبد يا (هالة) .

ولم تكن عبارتى فى تلك اللحظة كاذبة أو منافقة ..

لقد كنت أنطق حقًّا بما يشعر به قلبى ..

وتراجع الانتقام لينزوى فى ركن مهمل من أعماقى ، وليُفسح طريقاً كبيراً لحبى ..

لقد أحببتُ (هالة) بوجدانى فى هذه الليلة ..

أحببتُها حتى أننى لم أعد أذكر انتقامى ..

لم أعد أفكر إلاّ فى السنوات المضيئة التى تنتظرنا . سنوات الحب .

* * *



١١ ـ وداعا للعذاب ..

أقسم لك يا سيدى أننى نسيت تماماً ، منذ تلك الليلة ، رغبتى فى الانتقام ..

لقد هزم الحب شيطان الانتقام ، وقلّص حجمه فى قلبى ..

وياليته قتله ، وتخلص من شروره وآثامه ! !

ولكن من المؤكد أننى نسيته ، والدليل على ذلك هو أننى لم أعد أشعر بالعذاب ، حينما أعترف لنفسى بحب (هالة) ..

لقد استسلمت لذلك الحب ، واستكنت له تماماً ..

وكانت (هالة) تستحق ذلك ..

كلما ازددت اقتراباً منها وفهماً لها ، وجدت أنها أكثر جمالا ورقة وطهارة مما كنت أتصوَّر ، حتى لقد تصوَّرت يوماً أنها من مصاف الملائكة ، وليست من بنى البشر ..

ولقد امتلكت حبها قلبى ومشاعرى ، حتى عدت لا أجد السعادة إلا فى قربها ..

فى ابتسامتها ..

فى رقتها ..

فى سعادتها ..

ولقد نجحت (هالة) فى الثانوية العامة بتفوق ، والتحقت بكلية الحقوق ، وأوفت والدتى بوعدها ، وابتاعت لنا شقة فاخرة لزواجنا ، ثم أضافت إليها شقة أخرى فى حى تجارى كبير ، وكأنها تذكرنى بأن الوقت قد حان ، لأستقل بعملى ، وأفتتح مكتبى الخاص للمحاماة ..

ولقد وافقها والد (هالة) على ذلك ، مؤكداً أن هذا هو التطور الطبيعى لنجاحى فى سلك المحاماة ، على الرغم من أسفه لتركى مكتبه ..

وبدأت عملى فى مكتبى الخاص ، مستنداً إلى شهرتى ، ونجاحى فى عالم المحاماة ، وسرعان ما امتلأ المكتب بالعملاء ، وحققت النجاح فى عدد من القضايا

المعقدة ، وصرت واحداً من أنجح المحامين فى القاهرة ، وأكثرهم شهرة ، على الرغم من كونى أصغرهم عمراً ..

وتطورت أعمال أمى أيضاً ، وقد بدأت تؤكد موهبتها فى عالم الاقتصاد والأعمال ، على الرغم من منشئها الفقير ، وبداياتها البائسة المتواضعة ، فتحوَّل معرض الأزياء الذى تملكه إلى مصنع صغير للملابس الجاهزة ، التى نالت شهرة واسعة سريعة نظراً لجودتها ، ورخص أسعارها ..

وبدا وكأنَّ أيام الشقاء والعذاب لن تعود أبداً ..

أما (هالة) فقد كانت كالفاكهة الجميلة ، تزداد حسناً وتألُّقاً ، كلما نضجت ، وازدادت حلاوتها ..

وصرت – أنا وهى – نتعجل انتهاء دراستها بكلية الحقوق ، حتى يتم زفافنا ، وينطوى قلبانا تحت جناح الحب والسعادة ..

وكانت كل أحاديثنا ، وأحلامنا ، ومشاعرنا تدور فى فلك واحد ..

فلك الحب ..

الحب وحده ..

كان من اليسر على كل من يرانا أن يعرف أننا عاشقين ..

خطواتنا البطيئة الهادئة ..

همساتنا ..

أصابعنا المتشابكة ، المتشبثة بعضها ببعض ..

نظراتنا الهائمة المحبة ..

كل لمحة فينا كانت تشى بحبنا وعشقنا ..

لن يمكننى يا سيدى أن أقصَّ عليك كل ما حدث بيننا طوال سنوات الخطبة الأربع ، التى زخرت بالحب والحنان ، والمشاعر السامية الراقية ، فأنا أشعر بغصة فى حلقى كلما تحدثت عن تلك الأيام ، وبمرارة شديدة ، كلما تذكرت أننى ذبحت كل تلك المشاعر والذكريات الرقيقة على مذبح الانتقام الأسود الرهيب ..

لن يمكننى أن أقص عليك كل ما حدث ، ولكننى سأخبرك بموقف واحد وحديث واحد ..

سأخبرك به لتعلم أى وحش كنت ، حينما قتلت

تلك الزهرة الرقيقة ، وأى وَغْد كنت عندما مزقتها بلا رحمة أو شفقة ..

كان ذلك فى آخر سنواتها الدراسية ، وقد امتلأت نفسينا بالفرح ، لقرب نيلها درجة (الليسانس) ، وقرب زفافنا ..

وكنا ننسق بعض الديكورات فى شقة الزوجية ، حينما سألتنى (هالة) فى اهتمام :

— هل تذكر هديتى لك يوم خطبتنا يا (عادل) ؟

احتويت كفها فى راحتى ، وضغطتها فى حنان ، وأنا أقول :

— أتذكَّره ؟! .. إنه لا يفارق عينى أبداً ياحبيبتى .. إننى أحتفظ به إلى جوار فراشى ، حتى يطالعنى كلما أويت إليه ، ويجعلنى أحلم برقتك وجمالك فى كل ليلة .

غضَّت بصرها فى خجل ، وهى تقول فى حياء :

— أحقًّا ؟!

غمغمت فى هيام :

— أتسألينى يا (هالة) ؟ .. لن أجيبك أنا .. دعى قلبك يجيب بدلا منى .

ارتسمت على شفتيها الرقيقتين ابتسامة فرحة ، وهى تسألنى فى رقة :

— وهل تعتنى به ؟

أجبتها فى محبة :

— إننى أوليه كل رعايتى ، كما لو كان ابننا يا حبيبتى .

اتسعت ابتسامتها الفرحة ، وسحبت كفها من راحتى فى رقة كعادتها ، ثم اتجهت إلى مجموعة من الأرفف الرقيقة فى صدر ردهة المنزل ، وقالت فى حماس :

— أريد أن نضعه هنا ، عندما نتزوج .

سألتها فى اهتمام :

— ولماذا هنا بالذات ؟

عادت تخفض عينيها فى حياء ، وهى تغمغم :

— حتى يراه كل من يأتى لزيارتنا ، ويعلم كم يحب كل منا الآخر .

ثم أردفت فى صوت يزداد خفوتاً وحياءً :

— وحتى يكون أول ما يطالعك ، حينما تعود من عملك ، فلا يفارق حبى قلبك أبداً ، وتبقى أبد الدهر رفيقاً بى ، رقيقاً حانياً فى معاملتى .

اقتربت منها فى حب ، واحتويت كفيها فى راحتى ، وأنا أقول فى حنان دافق :

— سنضعه هنا يا حبيبتى .. وسيبقى أبد الدهر رمزاً لحبنا .

غمغمت فى سعادة :

— هل تعدنى ؟

هتفت فى حماس :

— أعدك يا (هالة) :

هل رأيت يا سيدى كم كانت رقيقة ، محبة ، حالمة ! ! ..

هل رأيت كم كنت أنا وغداً قاسياً ؟ ..

إن كيانى يتمزّق إرباً ، ويتحطّم تحطيماً ، كلما تذكرت هذا الوعد ، أو ذاك الحديث ، وأشعر بخستى ووضاعتى ، كلما استعاده ذهنى ....

ولكن دعنا نعود إلى قصة جريمتى يا سيدى ..

لقد انتهت (هالة) أخيراً من دراستها ، وحصلت على (ليسانس) الحقوق ، بدرجة جيـد ، وكانت فرحتنا – آنذاك – لا توصف ..

كانت فرحة مزدوجة عظيمة ..

فرحتنا بنجاحها ، وفرحتنا بقرب موعد الزفاف .

وأسرعت إلى منزل أسرتها ؛ لأهنئها بنجاحها ، وحملت إليها هدية غالية الثمن ، رقيقة الذوق ، ثم انتحيت بوالدها جانباً ، وقلت له فى لهفة :

– أعتقدأنه قد آن لفترة الخِطبة أن تنتهى يا عماه.

ابتسم فى حنان ، وهو يقول :

– أأنت متعجل إلى هذا الحد ؟

هتفت فى مزيج من اللهفة والاستنكار :

– متعجل ؟! .. إننا ننتظر هذه اللحظة منذ أربع سنوات يا عماه .

ربّت على كتفى فى حنان ، وابتسم وهو يقول :

– حسناً يا ولدى ، سنبحث عن أقرب موعـد ممكن و ..

قاطعته فى لهفة :

– كل شىء معدّ يا عماه .. الشقـة والأثاث .. كل شىء .

ضحك وهو يقول :

– متى تحب أن يكون الزفاف إذن ؟

هتفت فى شغف :

– مساء يوم الخميس القادم .

رفع حاجبيه فى دهشة ، وهو يقول :

– بعد ستة أيام ؟!! .. ولكنه وقت مبكر جداً يا بنىّ .

هتفت فى اعتراض :

– إنه يكفى يا عماه .

صمت لحظة ، وكأنه يفكر فى الأمر ، ثم سألنى فى اهتمام :

— هل استشرت والدتك أولا ؟

هتفت فى مرح :

— إنها لن تعترض يا عماه ، فسعادتنا — أنا و (هالة) — هى كل ما تصبو إليه .

صمت لحظة أخرى ، ثم ابتسم وهو يقول :

— لا بأس يا ولدى .. فليكن زفافكما فى مساء الخميس القادم .

تهللت أساريرى ، ورحت أشكره فى سعادة وفرح ، وتركت له مهمة إبلاغ (هالة) ووالدتها ، ثم أسرعت أزف البشرى إلى أمى ..

ولم أكن أتصوَّر اعتراضها أبداً ، حتى أننى مررت فى طريقى بدار للطباعة ، وعهدت إليها بمهمة طبع بطاقات الدعوة للزفاف ، قبل أن أذهب إلى أمى ..

واستقبلتنى أمى بابتسامتها الحنون كعادتها ، فقبلتها فى حرارة ، ثم قلت :

— لقد اتفقت مع والد (هالة) على موعد الزفاف يا أماه .

تهللت أساريرها فى فرح ، وهى تقول :

— هنيئاً لك يا ولدى .. ومتى يتم ذلك ؟

أجبتها فى سعادة :

— الخميس القادم بإذن الله .

فوجئت بوجهها يمتقع ، وبعينيها تتسعان فى ذعر ، وهى تغمغم :

— يا إلهى ! ! .. الخميس القادم ؟!

سألتها فى قلق :

— ألا يناسبك هذا الموعد يا أماه ؟ .. لقد بدأت طبع بطاقات الدعوة بالفعل .

ظل وجهها على امتقاعه ، وهى تتطلع إلى وجهى فى شرود ، ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة ، وهى تقول فى حنان :

— لا يا ولدى .. إنه موعد مناسب .. كل الأوقات مناسبة ، ما دمت ستهنأ بعروسك .

قبّلتها فى شكر وامتنان ، إلاّ أن القلق لم يفارقنى .
وأنا أتساءل عن سر امتقاع وجهها على هذا النحو ..

وفجأة تجلّت لى تلك الحقيقة ، التى قلبت كل الأمور والمشاعر رأساً على عقب ..

تلك الحقيقة القاسية . التى عادت تبرز فجأة إلى عقـلى ..

لقـد كان اليوم الذى اخترته لزفافى يوافق أسوأ ذكرى فى حياتى وحياة أمى ..

لقد كان يوافق ذكرى إعدام أبى ..

* * *



١٢ ـ لمـاذا يا قدر ؟..

أظلمت الدنيا أمام عينى ، ومادت بى الأرض ، وكدت أترنّح ، وأسقط مصعوقاً ، حينما تجلت لعقلى تلك الحقيقة ، التى خلتها كافية لهدم سعادتى وهناءتى ..

ومن العجيب أننى تماسكت ..

تماسكت حتى لا تدرك أمى ما أصابنى من ألم ومرارة ..

واتجهت إلى حجرتى فى خطوات بطيئة ، ولم أكد ألجها حتى أغلقت الباب خلفى فى إحكام ، ثم ألقيت جسدى المكدود على الفراش ، ورحت أحدّق فى سقف الحجرة ، الذى بدا لى فى تلك اللحظة وكأنه شاشة لعرض سينمائى ، تعرض أمامى تلك المشاهد المؤلمة لمحاكمة أبى ، والحكم بإدانته وإعدامه ..

ورحت أسأل نفسى ، لم حدث ذلك ؟ ..

لماذا اختار القدر هذا الموعد بالذات لزفافى ؟ ..

أهى محاولة منه ليؤكد لى أن مصيرى ليس للسعادة

أو الهناءة ، وأن الانتقـام هو قدرى ومستقبلى ؟! ..

أوَجَد أنه من الكثير بالنسبة لقلبى الأسود أن يشعر بالسرور والفرح ؟ ..

أكان يعلم أن مثلى لم يخلق للحب ، بل للتعاسة والشقاء ؟! ..

أم هو ذلك الشيطان الذى استوطن قلبى ، والذى خدعنى حينما ظل خامداً ، ساكناً لأربع سنوات كاملة ، حتى خلته قد مات أو اندحر ، ولكنه كان أكثر الجميع خبثاً ودهاء ؟ .

نعم إنه هو ولا شك ..

لقد انتظر فى صبر أربع سنوات ، حتى واتته الفرصة المناسبة ، فانطلقت حِممه لتنهش قلبى بأنياب من نار ..

أهو الذى دفعنى لاختيار هذا اليوم بالذات لزفافى ؟

أهو الذى محا حب (هالة) من قلبى فى لحظة واحدة ، لينشر هو سمومه ويبث شروره ؟ ..

لست أدرى ما إذا كانت هذه هى الحقيقة أم لا ؟

المهم أنه نجح ..

لقد بدا لى حبى لـ (هالة) فى تلك اللحظة خطيئة بشعة ..

خطيئة فى حق والدى ، الذى أرسله والد (هالة) إلى المشنقة ..

وأخذت أبكى فى ندم وحرارة ..

هل يمكنك أن تتصور ذلك يا سيدى ؟ ..

لقد كنت أبكى ندماً ؛ لأننى أحببت (هالة) ..

لقد أصبح حب هذا الملاك الطاهر فى تصوُّرى خطيئة ..

ووجدت نفسى أنتحب فى مرارة ، وأهتف فى ألم :

– لن تضيع دماؤك هباء يا أبى .. إننى لم أتخلَّى عن انتقامى .. ولن أتخلَّى عنه أبداً .. سيدفع قاتلك الثمن يا أبى ..

ونهضت لأجلس على طرف فراشى ، وأجفف

دموعى ، وقد عقدتُ العزم على وأد الحب فى مهده ، والمضىّ فى طريق الانتقام ..

ووقع بصرى فى تلك اللحظة على تمثال (كيوبيد) الصغير ، وهو يقف مبتسما إلى جوار فراشى ، حيث أضعه دائماً ، ويصوِّب سهمه إلىَّ ..

لست أدرى إذا ما كان ذلك بمحض الصدفة ، أم أنها كانت محاولة من القدر لإزالة غشاوة الشر عن عينى ، وإعادتى إلى الصواب ، ولكن سهم (كيوبيد) كان مصوَّباً فى تلك اللحظة إلى قلبى تماماً ..

واختطفت التمثال الصغير فى غضب ، وكدت أحطمه على أرض الحجرة ، ولكن شيئاً ما منعنى من فعل ذلك ..

لست أدري ما إذا كان ذلك الشيء هو البقية الباقية من حب (هالة) فى قلبى ، أو خطة شيطان الانتقام ليضمن حب (هالة) لى حتى آخر لحظة ..

حتى لحظة الضربة القاضية ..

وأعدت التمثال إلى مكانه فى رفق ، ولكننى لم

أحتمل التطلُّع إليه ، فأشحت بوجهى عنه ، ونهضت لأغادر حجرتى ..

ولكن شتان ما بين دخولى إلى حجرتى ، وخروجى منها ..

لقد ولجتها بشرًا ، وفارقتها شيطاناً ، لا يحمل قلبه إلا البغض والكراهية ، والرغبة الشريرة فى الانتقام ..

والعجيب أن أحداً لم ينتبه إلى ذلك الفارق ..

لا أحد سواى ..

لقد كانت فرحة قرب الزفاف تغمر قلوب الجميع ، فلا تفسح مكاناً للشك أو القلق ..

لقد انهمك والد (هالة) فى الإعداد لحفل الزفاف ، وابتسامة السعادة الحنون لا تفارق شفتيه أبداً ، وغرقت أمها حتى قمة رأسها فى إعداد ما يلزم العروس ، التى ستنتقل بعد أيام قليلة إلى حياة جديدة ، ومنزل جديد ..

وأصرَّت والدتى على أن تحيك ثياب العروس بنفسها وتوقفت أعمال مصنعها الصغير كله ، لينهمك الجميع فى صنع عشرات الثياب للعروس الجميلة ..

أما أنا ، فقد حافظت على أسلوبى الهادئ ، وكلماتى الحانية المحبة ، وأنا أعاون (هالة) فى ترتيب منزل الزوجية ..

وكان أكثر ما حرصت عليه ، هو أن أضع تمثال (كيوبيد) الصغير فى نفس المكان ، الذى اختارته له (هالة) من قبل ..

ولقد أسعدها هذا كثيراً ..

ويا لغرابة المشاعر البشرية ! !

ويا لبشاعة الانتقام ! !

لقد كانت سعادة (هالة) ، فى الماضى ، تجعلنى أسعد إنسان فى العالم كله ، أما فى تلك اللحظات ، التى امتلأ قلبى فيها بذلك الشيطان البغيض ، فلم تكن سعادتها تبعث فى نفسى إلا الشعور بالظفر ، وبأن خطتى تمضى فى طريقها على نحو سليم ..

وكما تمضى كل الأيام السعيدة فى سرعة ، كذلك تمضى الأيام الكئيبة فى تثاقل وبطء ..

ولقد مضى ذلك الأسبوع كأبطإ ما يكون ، حتى حان اليوم المنتظر ..

يوم الزفاف ..

واقتربت نهاية طريق الانتقام ..

بل أصبحت على مرمى البصر ..

وابتسم شيطان الشر ..

* * *



١٣ - زفاف وانتقام ..

وجاء يوم الزفاف يا سيادة وكيل النيابة ..

لا يمكننى أن أصف لك جمال حفل الزفاف ، ولا روعة (هالة) فى ثوب الزفاف الأبيض ..

لقد كان يوماً رائعاً مشهوداً ، تألقت فيه الأضواء فى الحى كله ، حتى بات المساء أشبه بالنهار ، وبدت الفرحة والسعادة على وجوه الجميع . وخصوصاً أمى ، ووالدى (هالة) ..

كان المستشار (حسن) يستقبل المدعوين فى سعادة ، وابتسامته الفرحة تلتمع فوق شفتيه ، وزوجته تتنقل بين الموائد فى لباقة وسرور ، وتتبادل التحية مع المدعوات فى سعادة ، أما أمى فقد بدت أكثر الجميع تهللا ، وقد منحها وجهها النحيل ، وشعرها الأشيب وقاراً وبهاء ..

وكنت أنا أجلس هادئاً ، رصيناً ، وأرسم فوق

شفتى ابتسامة جامدة ، تبدو لغير المتفحص وكأنها ابتسامة رضا وسعادة ..

أما أعماقى فكانت تموج بالشماتة والشر ..

كنت أحصى الساعات والدقائق ، حتى تحين لحظة الانتقام ، التى انتظرتها عشرين عاماً كاملة ..

أما (هالة) فقد كانت تبتسم فى سعادة حقيقية ..

سعادة تمتزج بحياء عروس فى ليلة زفافها ..

وكانت تتألق كالبدر المنير ..

كان ثوب الزفاف الأبيض يمتزج بشعرها الذهبى ، وبشرتها الوردية ، ليصنعن معاً لوحة رائعة ، لجمال خلق الخالق (عز وجل) ..

وسار الحفل كأجمل ما يكون حفل زفاف ، حتى حانت لحظة انتقالنا إلى مسكننا ، فقبلت أمى (هالة) وقبلتنى ، وقالت لها فى فرح :

— لن أوصيك به يا (هالة) . فحبكما خير وصى .

غمغمت (هالة) ، وهى تختلس النظر إلىَّ فى حياء :

— سيحيا فى عينى يا أماه .

وقبلت أم (هالة) ابنتها . وهى تبكى من فرط السعادة ، وقبلها والدها فى حنان وحب ، ثم التفت إلىَّ ، وهو يقول :

– لا تفرط فيها أبداً يا (عادل) .

ابتسمت دون أن أنطق بكلمة واحدة ، وكأنما خشيت أن أعِد بما لا أنوى الالتزام به ، واكتفى هو بابتسامتى لحسن حظى ..

وذهبنا إلى منزلنا أخيراً ، ووقفت فى مواجهة (هالة) وحدنا ، داخل شقتنا الخاصة ، وخفضت هى عينيها فى حياء ، وهى تبتسم فى سعادة ، فاقتربت منها فى هدوء ، ورفعت عن شعرها الذهبى طرحة الزفاف ، وقلت :

– لقد أصبحت زوجتى يا (هالة) .

تألقت السعادة فى عينيها ، واستكانت كعصفور رقيق بين ذراعىَّ ..

وكانت تلك أطول ليلة فى حياتى ..

لقد ظللت مستيقظاً طيلة الليل .. أتأملها بعد أن

استغرقت فى النوم ، وقد بدت كفراشة رقيقة ، تتوسد زهرة يانعة فى رفق ..

وعاد ذلك الصراع إلى أعماق مرة أخرى ..

الصراع ما بين الحب والانتقام ..

ودار بين شقى الطيب ، ونصفى الشرير حوار عنيف ، حينما غمغم الأول فى إشفاق :

– يا لها من ملاك رقيق ! ! إنها لن تحتمل ذلك الانتقام الرهيب ! ! .

– ولكنها تستحقه .

– والدها هو القاتل ، لا هى .

– جريمة الآباء يرثها الأبناء :

– أى ميراث هذا ؟

– لا أحد يختار ما يرث .

– سيقتلها ما أنوى فعله .

– إنها تستحق القتل .

– سيمزقها إرباً .

– إنه جزاء عادل .

- وهل يدفع الملائكة دين القتلة ؟
- نعم .. إذا أنجب القتلة ملائكة .
- يمكننى أن أؤجل انتقامى ، حتى أحسم أمرى .
- ستضيع فائدته لو انتظرت ..
- ولكنه شديد القسوة .
- ومقتل والدك على حبل المشنقة ؟ .. أهو أمر بالغ الرحمة ؟

بهذه العبارة وحدها انتصر نصفى الشرير يا سيادة وكيل النيابة ، فتراجع الحب فى قلبى ، وانزوى باكياً منكمشاً ، يتطلّع فى لوعة وذعر وجزع إلى شيطان الانتقام ، الذى تضخم ونما ، ووصل إلى ذروة قوته وبأسه ..

وأخذت أنتظر مطلع النهار فى لهفة وتوتر ..

وجاء النهار .. وحانت لحظة الانتقام ..

وبدأ المهنئون يتوافدون ، لتقديم تهنئاتهم وتمنياتهم الطيبة ، فيما يسمونه بـ (الصباحية) ، أول صباح فى حياة العروسين .

كان والدا (هالة) أول من وصل ، وتلتهما أمى ، ثم أقارب (هالة) ، وأقاربى ، وأنا أستقبل الجميع فى ترحاب ، حتى اكتظ بهم المنزل ، وخرجت إليهم (هالة) فى ثوب فستقى أنيق بسيط ، واتخذت مقعدها إلى جوار أمى ، التى انهالت عليها بقبلات الفرح والمحبة..

وكانت هذه هى اللحظة المناسبة لانتقامى ..

لحظة لا تتكرر إلا مرة واحدة فى العمر بأكمله ..

لحظة ينتقيها الشيطان فى رعاية وعناية بالغتين ..

وترددت فى تنفيذ ما خططت له طويلا ، ولكن شيطان الانتقام أسرع بمحو ترددى ، حينما بعث أمام عينى تلك المشاهد التى تلهب دمائى بالكراهية والبغضاء..

محاكمة أبى ..

إدانته ..

إعدامه ..

وحجبت هذه المشاهد كل المشاعر الطيبة فى أعماقى ، ولم تترك فى نفسى إلا الوحش الكاسر ، الذى لا يعرف شفقة ولا رحمة ..

واندفعت وسط الحاضرين فجأة على نحو أثار دهشتهم ، ولوَّحت بذراعى ، وأنا أقول فى حِدَّة :

ـ لحظة أيها السادة .

التفت إلىَّ الجميع فى مزيج من الدهشة والتساؤل ، فأردفت فى صرامة :

ـ لقد جئتم تهنئوننا بالزفاف .. أليس كذلك ؟

غمغم بعضهم بهمهمات غير مفهومة ، فى حين أومأ البعض الآخر برءوسهم إيجاباً ، وتطلعت إلى (هالة) فى حيرة ، وأنا أستطرد فى حِدَّة وعصبية :

ـ هل تريدون معرفة رأيى فى (هالة) ؟ .. إنكم تريدون ذلك .. أنا أعلم أن الفضول يملؤكم .

ثم التفتُّ إلى (هالة) ، وجمعت كراهية وبغض عشرين عاماً فى حروف كلمة واحدة ، ألقيتها فى قسوة وخشونة وبرود :

ـ أنت طالق يا (هالة) .. طالق .

* * *

١٤ ـ مقتل فراشة ..

لو أننى ألقيت قنبلة شديدة التفجير فى ردهة منزلى ، لما كان لها ذلك التأثير الذى صنعته كلمتى فى الحاضرين ..

لقد امتقع وجه أمى ، وجحظت عيناها ، حتى تصورت أنها ستقضى نحبها لساعتها ، ولطمت والدة (هالة) صدرها بكفها ، وهى تطلق شهقة ذعر قوية ، وقفزت دموع الألم والمرارة إلى عينيها دفعة واحدة ، فى حين اتسعت عينا المستشار (حسن) ، وسقطت فكه السفلى فى ذهول ، وفقد وجهه تلك الحمرة الطبيعية الموروثة ، وتبادل الآخرون نظرات مذهولة ، وهم ينقلون أبصارهم ، ووجوههم الممتقعة بينى وبين (هالة) ..

كان الجميع يعلمون ما يعنيه طلاق العروس فى الصباح التالى لزفافها ..

كانوا يعلمون أن هذا يصِمُها بالعار طيلة عمرها ..
وكان هذا هو الانتقام البشع الذى أعددته ..

كنت أقضى على المستشار (حسن) ، عن طريق تمزيق ابنته ، ووصمها بعار لا يمحى ..

كنت أمزق فراشة رقيقة ، دون رحمة أو شفقة ، لإرضاء شهوة حقيرة ..

ولن أنسى أبداً تلك النظرات الشاردة ، التى حدَجَتنى بها (هالة) ، وهى تهتف فى صوت مختنق :

ـ ماذا تقول يا (عادل) ؟

صرخت فى لهجة أقرب إلى الجنون :

ـ أقول إنك طالق !! طالق !!

وأخذت أردِّد الكلمة فى هستيريَّة وعصبيَّة ، والمهنئون ينصرفون فى مرارة وحياء وإشفاق ، وهم يتبادلون نظرات الخجل والعار ، حتى لم يبق فى منزلى سواى وأمى ، و(هالة) ، ووالديها ..

وانكمشت (هالة) المسكينة فى مقعدها ، وراحت

تحدِّق فى وجهى فى ذهول شديد ، وقد شحب وجهها حتى حاكى وجوه الموتى ، وقفز والدها من مقعده ، وأمسك ذراعى فى خشونة ، وهو يهتف فى مرارة :

ـ أى قول حقير نطقت به أيها الرجل .. إن ابنتى أشرف وأطهر فتاة فى الكون كله .

أزحت كفه عن ذراعى فى برود ، وأنا أقول فى سخرية :

ـ أعلم ذلك أيها المستشار .. أعلم ذلك .

تراجع ، وهو يسألنى فى ذهول :

ـ لِمَ فعلت ما فعلت إذن ؟

اقتربت منه ، وحدَّقت فى عينيه مباشرة ، وأنا أقول فى تشفٍّ وشماتة :

ـ ألم تنتبه طوال سنوات عملى معك إلى اسمى بالكامل ؟ .. ألم يذكرك باسم تعرفه من قبل ؟

غمغم الرجل فى ذهول :

ـ ماذا تعنى ؟

أجبته فى حِدَّة ، وأنا أتصوَّر نفسى أقوم بدوْر (إدمونـد دانتس) فى رائعــة (ألكسندر دوماس) (الكونت دى مونت كريستو) ، وهو يواجه أعداءه بجرائمهم فى حقه ، بعد أن يوقع عليهم قصاصه :

– أنا (عادل سالم) .. ابن الرجل الذى أرسلته إلى حبل المشنقة ، منذ عشرين عاماً .

تراجع الرجل فى حركة حادَّة ، وحدَّق فى وجهى كما لو كنت مصاباً بالجنون ، ثم غمغم فى مرارة وبغض :

– أيها الحقير !! أيها الحقير !!

أما (هالة) فقد ازداد شحوب وجهها ، وغمغمت فى ذعر :

– كلاَّ .. كلاَّ .

ثم أطلقت صرخة مدوِّية تتمزق لها نياط قلبى ، كلما استعادتها ذاكرتى ، وسقطت فاقدة الوعى ، وأسرع إليها والدها ، وهو يردِّد :

– أيها الحقير !! أيها الحقير !!

أما أنا فقد انطلقت أضحك فى سخرية ، وقد خلا قلبى من أى شعور بالرأفة أو الشفقة أو الرحمة ، حتى انتبهت فجأة إلى أنه لم يعد هناك إلا أنا وأمى ، التى انكمشت فى مقعدها ، وراحت تتطلَّع إلىَّ فى إشفاق وألم ، فسألتها فى لا مبالاة :

– أين ذهبوا ؟

أجابتنى فى صوت مختنق ، شديد الخفوت :

– لقد رحلوا .. لم يعد هناك ما يبقيهم هنا .

ثم انهمرت الدموع المتحجرة من عينيها فجأة ، وهى تهتف فى مرارة :

– ماذا فعلت أيها الشقى ؟ .. ماذا فعلت أيها التعس ؟

هتفت فى فخر :

– لقد انتقمت لأبى يا أماه .

صرخت فى ألم :

– ومن طلب منك أن تنتقم له ؟

تطلَّعت إليها فى دهشة ، وأنا أغمغم فى حَيْرَة :

— أماه .. لقد ظننت أننى ..

قاطعتنى وهى تبكى فى حرارة :

— ماذا ظننت ؟ .. ماذا ظننت أيها البائس ؟.. هل كنت تظننى أسعى للانتقام ؟ .. هل كنت تظن أننى لم أعلم منذ اللحظة الأولى ، أن المستشار (حسن) هو نفس القاضى ، الذى أصدر حكم الإعدام على أبيك ؟.. أنت واهم إذن .. واهم .. لقد كنت أظن أنه أنت الذى لا يعلم ، وأننى أكتم الأمر فى أعماق ، فى سبيل سعادتك وهناءتك ، وكنت أظن أن القدر هو الذى اختار مكتب المستشار (حسن) لتعمل أنت بالذات فيه ، وأنه الذى أوقعك فى حب ابنته ، ولم أشأ أن أقف عقبة فى سبيل نجاحك أو حبك ، خاصة إننى لا أحمل فى قلبى ذرة واحدة من الكراهية لوالد (هالة) .

هتفت وأنا أسقط فوق مقعد قريب :

— أماه ! !

تجاهلت هتافى ، وهى تستطرد فى مرارة :

— لقد كان والدك قاتلا .. نعم .. إنه لم يكن بريئاً أو مظلوماً ، ولقد كان القاضى يؤدّى واجبه ، وينفذ القانون الذى يلزمه عمله بتنفيذه ، حينما أصدر ضد والدك حكم الإعدام .. وأنت نفسك أرسلت قاتلا إلى حبل المشنقة ، وكنت تؤدّى واجبك ، وتسعى لتنفيذ العدالة ؟

بدأت الحقائق التى حجبها عنى شيطان الانتقام تتكشف أمام عينى قاسية ، جارحة ، بعد أن اطمأن الشيطان إلى نجاحه ، فغادرنى ، وانطلق يبحث عن تلميذ جديد ، وهتفت فى ألم وذهول :

— يا إلهى ! ! .

وواصلت أمى وهى تبكى فى حرارة :

— إذا كان هناك قاتل فهو أنت .. أنت يا (عادل) .. أنت يا من لا تعرف الرحمة أو العدل .. أنت قتلت أرق فراشة فى الوجود ، ومزقت أطهر

فتاة فى الكون كله ، دون أن تأخذك بها شفقة أو رحمة .

وشهقت فى مرارة ، قبل أن تستطرد من بين دموعها الغزيرة :

ـ يا لضيعة عمرى ! ! لقد كنت أظن أننى نجحت فى تربيتك ، ولكن هأنتذا تثبت لى العكس .. لقد فشلت .. فشلت فشلا ذريعاً .. من المستحيل أن أكون قد أنجبت شيطاناً مثلك .. لو أننى فى موقعك لجثوت على ركبتى أمام (هالة) وبكيت طالبة منها المغفرة .. أنت قاتل ! ! قاتل ! !

وانصرفت أمى وهى تردد عبارتها الأخيرة ، التى ظلت تتردد فى أعماق حتى بعد انصرافها ..

واستيقظ قلبى من ليله الأسود الحالك ، ورأيت بشاعة مافعلت ، وهالنى إثمى .. هالتنى خستى ونذالتى ..

لقد ذبحت (هالة) على مذبح الانتقام ..

لقد مزقت أحب إنسانة إلى قلبى ..

وانطلقت أبكى بدموع ملتهبة ، ولكن هيهات أن يعيد إلىّ الدمع حب (هالة) ، واحترامها ..

هيهات ..

وحانت منى التفاتة إلى التمثال (كيوبيد) ، وخفق قلبى فى ذعر ..

قد تتهمنى بالجنون يا سيدى ، ولكننى أقسم لك إننى رأيت ذلك ..

رأيت (كيوبيد) يبكى ..

يبكى بدموع من دم ..

* * *



١٥ ــ هيهات ..

انطلقت كالمجنون إلى منزل (هالة) ، محاولا إصلاح ما أفسدته ..

حاولت أن أقابلها ، وأن أستردّها ، مهما كان الثمن ، ولكن والدتها رفضت أن تسمح لى بدخول المنزل ، وطردنى والدها فى قسوة ، بعد أن رمقنى بنظرة احتقار وازدراء ، لن تفارق ذهنى أبداً ..

ورحت أحوم حول المنزل كالمجنون ..

كنت أريد رؤية (هالة) ..

كنت أريد أن أقبّل قدميها ، وأرجوها الصفح ..

ورأيتها ..

ويا هول ما رأيت ! !

لم تكن تلك المخلوقة التى رأيتها فى نافذة المنزل هى (هالة) التى عرفتها ، وأحببتها ..

لقد كانت مخلوقة أخرى ..

مخلوقة ذابلة ، شاحبة ، نحيلة ، ممصوصة ..

بشرتها فقدت لونها الوردىّ ، المشرب بالحمرة ، وصارت بيضاء فى لون الشمع ..

عيناها فقدتا بريقهما ، وامتلأتا بحزن هائل ، وأسى عميق ..

حتى شعرها الذهبى فقد بريقه ونعومته ..

إنها لم تكن (هالة) ..

كانت شبح الفتاة التى أحببتها كما لم ولن أحب من بعد ..

وحاولت أن أقترب منها ..

أن أتحدث إليها ..

أن أطلب منها المغفرة والصفح ..

ولكن نظرتها جمدتنى فى مكانى ، وأعجزتنى عن النطق ..

كانت نظرة حزن وكراهية ، وازدراء ، واحتقار .

وكان هذا فوق ما أحتمل ..

كانت تلك النظرة كافية لتمزيقى ، وقتلى ..

ووجـدت نفسى أعدو مبتعداً ، وأنا أبكى فى مرارة وألم ..

وأخذت أجوب الطرقات ساهماً ، شارداً ، مذهولاً ..

ماذا فعل بى الانتقام ؟..

ماذا ربحت من وراء تلك السـنوات السـوداء الكئيبة ؟..

ماذا ربحت من عمرى كله ؟ ..

لقد خسرت احترام أمى وحبها ..

خسرت الرجل الذى أحبنى ، ومنحنى كل حنانه ورعايته ، كما لو كنت ابناً من صلبه ..

خسرت (هالة) ..

خسرت المخلوقة الوحيدة التى أحببتهـا ، والتى بادلتنى الحب ، ومنحتنى الوفاء والإخلاص ..

خسرت أعظم زوجة ، وأرق حبيبة فى الوجود ..

ألا لعن الله شيطان الانتقام !!

لقد احتل قلبى ليمزقه ، ويحطمه فى النهاية ..

ولم أجرؤ على العودة إلى منزلى إلا بعد أن انتصف

الليل ، والتقطت تمثال (كيوبيد) فى حنان ، وأخذت أقبله فى لهفـة واشتياق ، وأبلله بدموعى ، التى بدت وكأنها تنحدر من عينيه لا من عينى أنا ..

وقضيت ليلى كله وأنا أبحث عن تكييف قانونى للجريمـة التى ارتكبتها فى حقّ (هالة) ، واسترجعت كلمات أمى الأخيرة ، ووجدت أنها قد نطقت بالحق ..

إن جريمتى هى القتل ..

قتل طهارة مخلوقة رقيقة ، وحبها ، وبراءتها ..

وهكذا جئت إليك يا سيادة وكيل النيابة ..

جئت لأعترف بتلك الجريمة النكراء ..

جريمة قتل زوجتى وحبيبتى (هالة) ..

ولكن أرجوك يا سيادة وكيل النيابة ، لا تحاول إقناعى بأنها ليست جريمة قتل ..

لا تحاول إقناعى بأن تهمة القتل تنتفى ، إذا كان القتيل يحيا ويتنفس ..

صدقنى يا سيادة وكيل النيابة ، إن القتل البدنى هو أبسط وأرحم أنواع القتل ..

إن القتل المعنوىّ أكثر قسوة وبشاعة ..

وأنا قتلت (هالة) ..

قتلت مشاعرها الرقيقة ..

قتلت جمالها الملائكى ..

قتلت طهارتها ..

قتلت براءتها ..

إنهـا كما أخبرتك يا سيادة وكيل النيابة ، جريمة قتل من الدرجة الأولى ، مع سبق الإصرار والترصُّد ..

وأنا أطالبك بإصدار أوامرك بإلقاء القبض علىَّ ، وإحالتى إلى محكمة الجنايات ، والمطالبة بتوقيع أقصى عقوبة علىَّ ..

عقوبة الإعدام ..

وحذار من أن تتقاعس فى أداء واجبك يا سيادة وكيل النيابة ..

إيَّـاك أن تبحث عن ظروف مخففة ، أو عقـوبة هينة ! !

إياك أن تطالب هيئة المحكمة بأية رأفة أو شفقة ! !

وإذا ما أصـدرت المحكمة حكمها بغير الإعدام ، فسأرفض الحكم ..

وسأطعن فيه ..

سأطعن فيه يا سيادة وكيل النيابة ..

وستجد محكمة الطعن أن مطلبى عادل ..

إننى أطلب الإعدام لقاتل ..

أطلب الإعدام لمن أراق دموع (كيوبيد) .

* * *

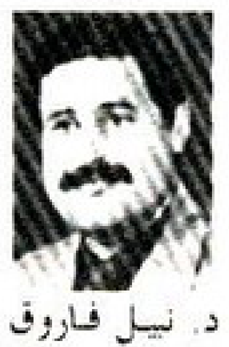
[تمت بحمد الله]

رقم الايداع : ٧٨٤٨



سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

المؤلف

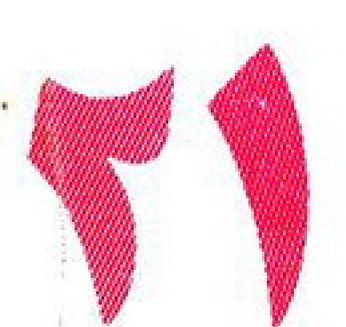


د. نبيل فاروق

السلسلة الوحيدة التى لايجد الأب أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

دموع كيوبيد

قصة اعتراف بجريمة حب ..
جريمة ارتكبها (عادل) ، فى حق
إنسانة هى أرق وأجمل مخلوقة فى
الوجود .. فى حق (هالة) .. الرقيقة
الوديعة الجميلة .. قصة اعتراف
بجريمة . أراقت الدمع من عينى
(كيوبيد) .. من عينى إله الحب .



الثمن فى مصر ١٠٠ قرشا
ومايعادل دولارا أمريكيا فى سائر الدول العربية والعالم